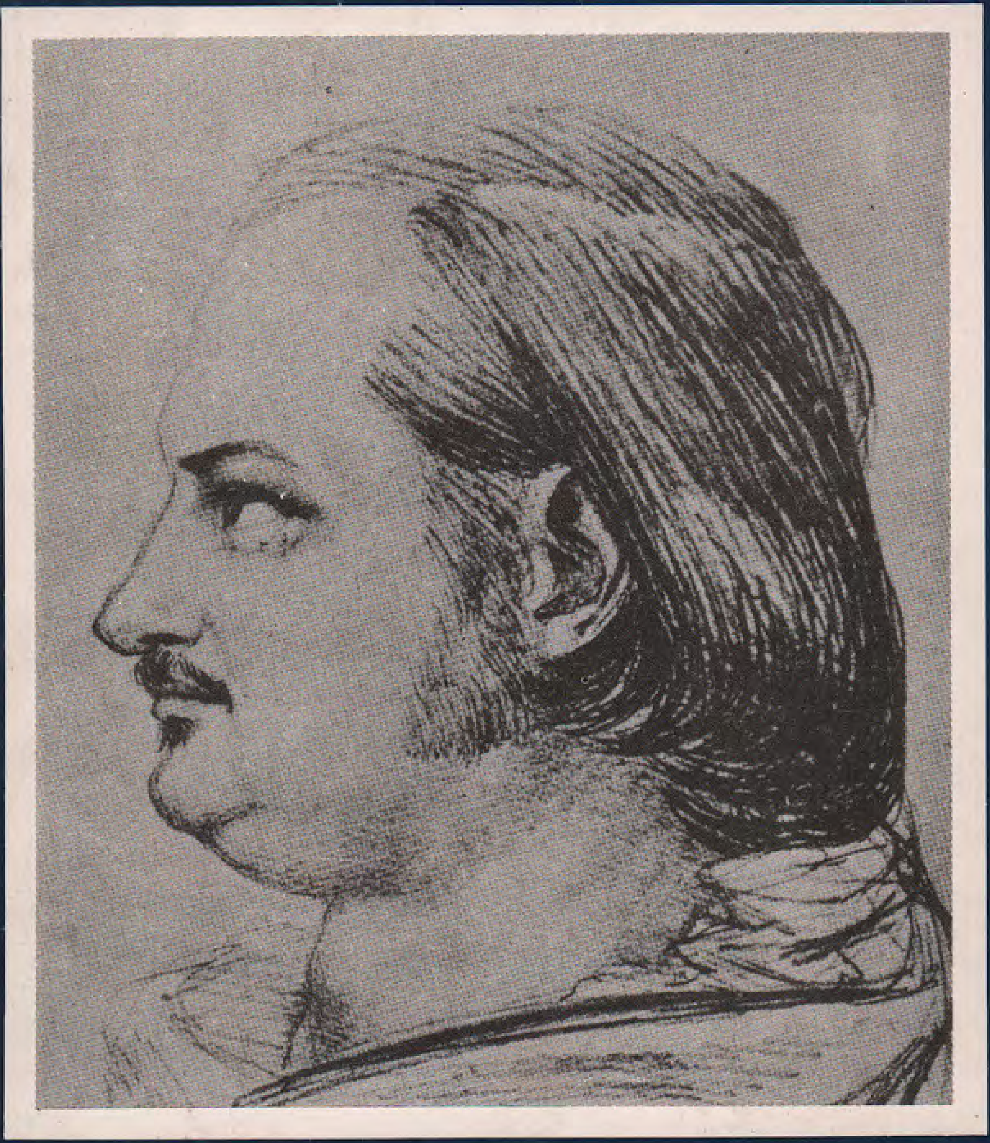
بلزاك

الملهاة الانسانية



١- وداعـــــا

٢- الــنزل الأحمر

ترجمة
صلاح الدين برمدا

دراسات فلسفية

روايات بلزاك
١٠

روايات بلزاك

« ١٠ »

بلزاك

الملهاة الانسانية

١- وداعاً

٢- المنزل الأحمر

دراسات فلسفية

ترجمة: صلاح الدين برمدا

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٢

العنوان الأصلي للكتاب :

BALZAC

LA COMÉDIE HUMAINE

Etudes Philosophiques

ADIEU

L'AUBERGE ROUGE

بلزاك؛ الملهاة الانسانية : دراسات فلسفية = comédie humaine/
ترجمة صلاح الدين برمدا . ـ دمشق ، وزارة الثقافة ، ١٩٩٣ . ـ ١٣٢ ص؛
٢٤ سم . ـ (روايات بلزاك ؛ ١٠) .

المحتوى : وداعاً ، النزل الأحمر . ـ بأوله دراسة حول المؤلف والقصة من
اعداد مويزلي ياوانك، وترجمة ميشيل خوري .

١ ـ ٨٤٣ فـ ب ل ز م ٢ ـ العنوان الأول ٣ ـ العنوان الموازي
٤ ـ العنوان الثاني ٥ ـ العنوان لثالث ٦ ـ بلزاك ٧ برمدا ٨ السلسلة

مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع ـ ٧١ /٢/ ١٩٩٣

دراسة حول المؤلف والقصة

اعداد : موييز لي ياوانك
ترجمة المهندس ميشيل خوري

— I —

عندما يطرح بلزاك في نهاية هذه القصة انتحار السيد سوسي «كمشهد اخير لمأساة بدات في العام ١٨١٢ ، فانه يعطي قبساً هادياً يقود الى دراسة مصادر إلهامه » .

تشهد ليلة ٢٨ ــ ٢٩ تشرين الثاني اللحظات الاخيرة من عبور البرزينا، وصورة النكبة متطابقة في مجموعها مع تلك التي يعرضها التاريخ ــ فقد قرأ بلزاك بتمعن واستخدم ــ كما يرى فيليب برتول ــ **تاريخ نابوليون والجيش الكبير في سنة ١٨١٢** ــ وهو مؤلف الجنرال دي سغور المنشور في ١٨٢٤ والمعاد طبعه ثمان مرات قبل ١٨٣٠ ، وقد أمن سغور للروائي معلومات عديدة حول حركات الجيوش ، وبؤس الجنود والمجرجرين ، وحول الجو المعنوي أيضاً . لكن ألم يعتمد بلزاك الا على هذا المصدر ؟

عند التطرق الى تضحية بناة الجسر وعددهم والناجي الوحيد بينهم « وهو الذي سمي غوندرن في طبيب الريف » يبتعد مؤلف **وداعاً** عن سغور ، وقد يتذكر حكاية جندي قديم من جند نابوليون ، النقيب بريولا مثلا ، الذي يعرفه منذ ١٨٢٩ ، والذي اشترك في حملة روسية ، لكن اذا أردنا الا نأخذ بالاعتبار الا المصادر المكتوبة ، فان بلزاك قد نزح من تاريخ نابوليون[١] ومنه فقط الايضاحات التاريخية الواردة في وداعاً (دون تعليق كبير اهمية على فرق أو اثنين في عدد الجنود بينه وبين سغور.

(١) بصورة خاصة نحو اربعين صفحة (من ٣٣٦ ــ ٣٧٤ ص) من الطبعة الثالثة (بودوان ١٨٢٥)

في داخل لوحة عسكرية فخمة يضع بلزاك المغامرة الخاصة للسيد دي سوسي والسيدة دي ڤانديير ، وقد تحدث سفور ومؤرخون آخرون بسرعة عن نساء انسقن بعيداً عن أزواجهن ، عندما اندفعت الجحافل نحو الضفة الغربية من البرزينا ، لكن لم ترد في أي مصدر آخر واقعة تقارن بالمأساة التي عاشها العاشقان في **وداعاً** ، وقد يكون تدخل بريولا أو أي ناج آخر عند الانسحاب مغرياً للاستناد اليه ، كما يجب عدم اهمال الرواية المنشورة في العام ١٨٢٦ بعنوان **اجتياز البرزينا واقعة صغيرة من تاريخ كبير** . وقد لفت الانتباه اليها بيير سيترون . في الجزء الاخير من ذلك المؤلف العائد الى أميل دبرو (وهو زجال مغني نشر له بلزاك عدة ابتكارات) ينفصل دوليه عن النيور ، صديقته ، بحركة الكتلة البشرية العنيفة الساعية الى اجتياز البرزينا ، لكنه ينجح في اللحاق بها انما وهي في النزع الاخير بحيث تفيض روحها عند ذلك وهي تقول له : « وداعاً ، لقد رأيتك ثانية ، وانا أموت دون أسف » بين حكاية ستفاني دني ڤانديير وحكاية النيور تقوم فروق هامة : النيور خاصة تموت بينما ستفاني تصاب بالجنون . لكن عند دبرو كما عند بلزاك توجد مأساة غرامية مختلطة بمأساة عسكرية ، والاطار الجغرافي والتاريخي فيها واحد (دبرو يوقع مأساته في ٢٧ تشرين الثاني ١٨١٢ وليس في ٢٨ أو ٢٩ لكن هذا التفاوت في التاريخ الموجود في **وداعاً** ليس وليد الصدفة) ، ولئن كانت البطلة تموت لدى دبرو ، فان العاشق يفقد عقله ، ويجتاز المانية ، ثم يدخل فرنسة غير واع كما فعلت ستفاني في قصة بلزاك ان مثل هذه الصلات تدفع على مايبدو الى الاعتقاد بتأثير **عبور البرزينا** لدبرو على « **وداعاً** » التي كان قسمها الرئيس في الصيغ الاولى معنوناً أيضاً « عبور البرزينا » .

أيلول ١٨١٩ ـ مطلع ١٨٢٠ : يعثر فيليب دي سوسي على السيدة دي فوديير وهي مجنونة ، ويسعى أن يعيد لها عقلها ، وعندما يتوصل الى ذلك تسقط ميته للحظتها . هذه المأساة سببها كارثة ١٨١٢ . لكن ما هي العلاقة في ذهن الروائي بين المأساتين هل تخيل هذه يشرح تلك أو أن حركة الابتكار كانت معكوسة ؟ وبما أن واقعة عبور البرزينا تشكل لوحدها « مشهداً كاملاً » ، الا يكون بلزاك قد جمع موضوعين مستقلين أصلا ؟ أسئلة عديدة تطرح دون امكان الحسم فيها .

لكن ليس مستحيلا بالمقابل ملاحظة أي نموذج من الخيال قد اتبعه لابتكار مأساة ١٨١٩ ــ ١٨٢٠ . فمنذ فترة محاولاته الاولى ، قص مغامرة مشابهة الى حد ما عندما عدل **الساحرة الاخيرة** ، والواقع فان آبل ، في الصيغة الثانية لهذه الرواية الصغيرة ، الذي غدا مجنونا بعد فشل في الحب ، تعنى به كاترين ، صديقته ، ويبقى مدة طويلة حبيس لا شعوره وهذيانه ، لكنه في النهاية يستعيد عقله ويتعرف على كاترين . والحال أن هذه القصة التي تختلف عن **وداعاً** بالنهاية السعيدة لحل عقدتها ، تم تصورها من قبل بلزاك بتذكره واقعة **ملموث** لماتورين وهو مؤلف قرأه بتمعن منذ العام ١٨٢١ .

في نهاية المرحلة المنونة « قصة العاشقين » يغدو جون ساندل مجنوناً لانه علم أن قد حظر عليه ظلماً الزواج باليونور مورتيمر لكن هذه رعته بحنان ، وفي يوم عاد اليه عقله فجأة . لكنه انهار سريعا بعد ذلك ، وقد استوحى بلزاك مباشرة من **ملموث** (وبعض المطابقات المحددة تبرهن على ذلك) مع تذكره **الساحرة الاخيرة** ، ليقص في **وداعاً** ، وهو مؤلف في ١٨٣٠ ، عودة الرشد الى ستفاني وموتها .

غير أن « قصة العاشقين » لا يمكن ان تقدم الا تصورا مجملا ، فقبل كل شيء ، وبما أنه افترض افتراق العاشقين في العام ١٨١٢ ، فيجب ان يبتكر ظروف لقائهما ، وحدد مكانه في غابة ليسل ــ آدم ، باسكانه فيليب في كاسان وستفاني في قلب الغابة ، في كنيسة دير بونزوم القديم ان اختيار هذا الاطار غير مستغرب ، فان بلزاك ، كما هو معروف كان يقضي منذ ١٨١٧ ــ ١٨٢١ ، فترة من الوقت كل سنة لدى ڤيلر ــ لافاي صديق والده ، وفي **وان ــ كلور** سابقا ثم في **فيزيولوجية الزواج** ورد ذكر لليسل ــ آدم وكاسان وبقراءة مراسلاته ، نستنتج أن مضيفه ، وهو عمدة المحلة ، كان ينزهه في عربة ضمن كامل المنطقة ، كما انه هو بالذات مشاء جيد ، وتحت تصرفه «فرس بليدة» مما مكنه من استكشاف المناطق المجاورة للمدينة ، فهو يعرف اذا منذ شبابه الأماكن التي ذكرها في **وداعاً** ، فقد اجتاز الغابة ، وشاهد دير بونزوم في حالته الخربة التي تصفها القصة . هل قام برحلات صيد في تلك المنطقة ؟ هذا ممكن ، ففي رسالة تعود

لشهر أيلول ١٨١٧ يتحدث العمدة عن رحلة صيد « خنازير برية » لم يتمكن صديقه الشاب من حضورها . لكن في أيلول ١٨١٩ وهو التاريخ المفترض لاكتشاف بونزوم من قبل سوسي ، فان من المؤكد أن اونورية دى بلزاك لم يكن في ليسل ـ آدم ، اذ استقر حديثاً في شارع لديغيير في باريس ، ومن المؤكد أن لديه سبباً خاصاً للتفكير بليسل آدم وغابتها ، ففي تشرين أول ١٨٢٩ ، كما يستدل من التاريخ المسجل في نهاية **مجد وشقاء** ، قضى فترة من الوقت في جوار ما فليه .

ما من شيء يسمح بالافتراض بأنه رأى في غابات ليسل آدم مجنونة تشبه ستفاني لكن السيدة منينجه تلاحظ أنه اذا كانت بطلة وداعـاً تتعرى لمدة طويلة ، واذا كانت تدمر الامكنة التي تحيا فيها ، فان لور ، احدى بنات السيدة دي برني كانت فريسة نوبات جنون تتعرى خلالها وتلقي بساعات النواس من النافذة ، فتأثير هذه المأساة على تصوير جنون السيدةدى ڤنديير يعتبر محتملا اذا أمكن اقامة الدليل على ان الخبل العقلي قد بدأ عند لور قبل تحرير **وداعاً** ، وحتى حينه يبقى الحكم على ذلك محتملا ، فضلا عن أن جنون لور وجنون ستفاني لا يتشابهان الا ببعض الملامح ، فصديقة فيليب محرومة من الذكريات ومن الافكار ، وكل مالديها غريزي فهي لا تنتمي الا الى عالم الحيوان .

هذه الصورة المؤثرة والشاذة ، فيها دون شك شيء من نظريات روسو لكن تأثير آخر يبدو أكثر أهمية ، فبلزاك عندما يتحدث عـن ستفاني التي عاشت شهراً في غابة مجاورة لستراسبورغ ، يستخدم تعبير « الفتاة المتوحشة » والحال أن الحديـث ، خـلال القنصلية والامبراطورية ، قد ورد كثيراً عن مخلوقات « متوحشة » عقب القبض على الشاب ڤيكتور ، نحو السنة الثامنة من الثورة ، وهو ولد وجد في آڤيرون ولا تربطه أية رابطة ظاهرة بالمجتمع ، واحدث العثور عليه ضجة كبيرة بعد أن نقل الى باريس اذ ظهر لدى الاطباء رأيان متناقضان . فالبنسبة لپينل طبيب الامراض العقلية المشهور ، فان ڤيكتور معتوه لا أمل في شفائه ، بينما رأى فيه إتيار اختصاصي الصم ـ البكم ، وغيره من الاختصاصيين نموذجاً بدائياً ، وهو ابن الطبيعة ـ البعيدة عن

المجتمع ــ وشرع في تربيته ، وقد ولدت محاولته كتابات طبية وفلسفية وحتى أدبيــة .

يحتمل أن بلزاك ، ولوالده اهتمامات بالطب ، قد سمع في بيــت أهله حديثا عن ڤيكتور ، ويحتمل أن يكون قد رآه ، اذ أن هذا المعتوه الذي لم يستجب لمعالجة وآمال اتيار ، عهد به الى امرأة ترعاه ، وشوهد خلال سنوات(توفي في العام ١٨٢٨) في حدائق اللوكسمبورغ والاوبسرفاتوار ومهما يكن الامر ، يبدو أن بلزاك قد استوحى من مذكرات اتيار المنشورة في العام ١٨٠١ : **حول تربية رجل متوحش ، او التطورات الاولى الجسمية والعقلية لفتى آڤيرون المتوحش** .

كانت ستفاني تشبه كائن آڤيرون المتوحش بجهلها الحياء ، وتعلقها بالطبيعة والغابة ، ومهارتها في تسلق الاشجار ، وحياتها الحيوانية الصرفة ، وبكلمة وداعاً المشابهة كثيراً أوه ! يا الله(١) التي أمكن لفيكتور لفظها ــ وفقاً لما ذكره اتيار . أيكون التشابه في هذين الهتافين التعجبيين قد انشأ في ذهن بلزاك رابطة بين ستفاني وڤيكتور ؟ يحتمل أن مؤلف **وداعاً** قد تأثر بتذكر ڤيكتور ، فستفاني المجنونة تطرح المشكلة الطبية نفسها التي عانى منها ذلك التعس .

بقيت جهود السيد دي سوسي ، بعد جهود السيد فانجا المستندة جميعها الى المعالجة التدريجية دون جدوى ، لكنه نجح عندما هز بشدة حساسية المجنون وفقا لما يشير **معجم العلوم الطبية** (المشترى من قبل والد الروائي) . فالمعالجة النفسية في ذلك العهد لم تكن تجهل تأثيرات هذا النوع ، ففي العام ١٨١٩ كتب اسكيرول في هذا المعجم ان جنون الكآبة « يتوقف بتأثير الرعب ، والخوف ، وبتأثير حيل ، مدبرة جيداً » وقد طبق اسيد دي سوسي أفكار بعض الاطباء . ربما اراد بلزاك أن ينافس ايضاً السيدة كوتن التي استخدمت في **مالڤينا** (١٨٠١) معالجة مختلفة لكنها مماثلة في التأثير تعتمد على الموسيقى .

---

(١) التشابه في اللغة الفرنسية بين Om, Dieu , Adieu

على كل حال أدخل بلزاك في قصته شكلا من المعالجة استخدم لشفاء شخص في **المغفل** وهي رواية ظهرت في ١٨٢٣ تحت اسم فيلرغله ، التي كتب بلزاك قسماً منها بدون شك ، ففيمي التي تشوشت بموت والدها ، بحادث انفجار ، غدت مجنونة في نهاية الرواية بحيث لم تعد تعرف أولريك الذي كانت تحبه،وقدعمل هذا بناء علىنصيحة طبيب،على اعادة خلقاطار وظروف الكارثة بالضبط ، وبذلك استعادت فيمي رشدها يحتمل جدا أن يكون بلزاك استوحى نهاية **وداعاً** من **المغفل** ـ أو من شفراء وهي رواية نشرت في ١٨٣٣ من قبل رسون ، لكن بلزاك عاونه فيها نحو ١٨٢٨ كما يشير ب. كولي و باربريس وفيها استخدام ماهر لاعادة الحدث في حالة الجنون ، وبذلك يحتمل أن بضاعة بلزاك قد ردت اليه .

في ١٨٣٠ تلقى فيليب ضربةقاتلة،عند رؤية موتخليلته وهنا تسير **وداعاً** على خط قصة العاشقين من **ملموث** ، لكن النيور تنطفيء بعد أيام قليلة بعد موت ساندال ، بينما السيد دي سوسي يعيش عشر سنوات بعد ستفاني ، فيوقع بلزاك انتحاره « خلال بضعة ايام » في نص نشره في ٥ حزيران ١٨٣٠ ، والحال أن أوغوست سوتله وهو صديق قديم ـ من أيام المدرسة الثانوية ـ للكاتب ، قد انتحر في ١٣ أيار في ظروف مماثلة لشخصية القصة ، باطلاق الرصاص على راسه عقب فاجعة غرامية . من المؤكد أن النصف الاول من وداعاً قد نشر منذ ٥ أيار ولكن يفترض أن بلزاك لم يكن قد كتب في ١٣ أيار كامل القصة التي انهاها تحت وطأة انتحار صديقه .

— II —

لا تخلو **وداعا** من عيوب ، فالصفحات الاولى تنقصها الحيوية ، والحديث عن نهاية حفلة الصيد (وهو في مجموعه قليل البلزاكية) بطيء، متكلف ، يبدو متصورا بشكل واضح عن نسخة عرض مألوفة ، بعدها بقليل تشكل الانعكاسات المذهلة المسقطة على منطقة بونزوم والمراة الشابة المجهولة تجاوزا غير مبرر تقريبا في طراز ١٨٣٠ ، وتصادف على مدى القصة تأثيرات بسيطة للتباين ، فدي سوسي ودالبون صديقان متباينان في الطبيعة والطبع والمهنة ، وكذلك جنفييف وستفاني امرأتان حمقاوان وصديقتان ، تختلفان بشكل متناقض في سحنتهما وشعرهما وكذلك

بطبيعة جنونهما . هذه التعارضا تالمنهجية والمستبصرة تكشف بسذاجة صنعة الخلق ، تماما كما في شخصية البطلة ، بالفقد الكامل لذاكرتها ووجودها الحيواني التام مما يبدو بناء ذهنيا . اخير لا يمكن الا ملاحظة الفرابة في أن يعرف السيد فانجا دون أن يكون قد التقى بدي سوسي تفاصيل أعماله وتصرفاته وحتى أفكاره خلال معركة برزينا .

مع ذلك فان القصة متميزة بأكثر من ناحية . فهي متميزة بتقنيتها فبإطلالتها من ثلاثة نوافذ على حياة دي سوسي خلال ١٨١٢ و ١٨١٩ ـ ١٨٢٠ و ١٨٣٠ ، وبواسطة مختصر (عن سنوات ١٨١٢ ـ ١٨١٩) واشارات عابرة استعادية (عما سبق الانسحاب من روسية) وصمت كبير (بالنسبة لمرحلة ١٨٢٠ ـ ١٨٣٠) توصل بلزاك أن يحصر في مؤلف قصير قصة حب طويل ، لم يبدأ منذ ١٨١٢ بل منذ عهد الصبا ، قطعه زواج ستفاني من جنرال قديم (بالإكراه ، على ما يبدو) ، واستمر هذا الحب أبديا ، حتى ما بعد موت المراة الشابة ، في قلب دي سوسي .

وهذه القصة متميزة ايضا بالتأثيرات المأساوية والمشجية ، وقدعنونها بلزاك عندما وضعها في **مشاهد من الحياة الخاصة ، واجب امرأة** . وأراد أن يظهر دي سوسي والسيدة دي ڤانديير كبطلي مأساة كورنلية ، فيشير الى أنهما قد تنازلا عن سعادتهما في روسية لانقاذ السيد دي ڤانديير . لكن أليس مكدّراً أن يعتبر شخصان تربط بينهما على مايبدو رابطة زنا ، وكأنهما ضحيتا واجب ؟ إن الكاتب قد تخلى بسرعة عن هذا العنوان وعن بعض كلمات مخصصة لتأكيد بطولة العاشقين الفاضلة . والقصة ليست بحاجة الى هذا المثير الاضافي للعواطف : فهي كما ظهرت بشكلها النهائي تمتلك شحنة انفعالية قوية أكبر بكثير من تلك الظاهرة لدى ماتورين في « قصة عاشقين » ؛ واللحظات التي تثير توتر القارىء ، والطوارىء ، والمفاجآت تتراكم . أما البطل فيتعرض لعذاب معقد ، فعليه الاقتناع بأن خليلته لم تعد تتعرف عليه ، وعليه أن يدرك أنها نسيت كل حياء ، وبالتالي أن يتشتت بين الرجاء واليأس ؛ والى جانبه ، السيد فانجا ، ومن أدواره أن يعطي صورة ثانية عن الآلام التي يسببها جنون ستيفاني ، وهو يتيح أيضا لبلزاك ان يرسم منافسة مؤثرة بين حبين ، حب الاب (إذ أن هذا العم قد أصبح أبا) ، وحب العاشق . لكن نجاح

وداعا يقوم خاصة على نجاحات اخرى ، من الانواع الاكثر صعوبة ؛ فعندما وصف بلزاك الطبيعة حول بونزوم ، أعطى صفحة تبشر بقيمتها الايحائية والشعرية بأفضل صفحات الزنبقة في الوادي ، وبعد ذلك في عبور البرزينا يبرهن عن مهارته كرسام حرب ، وحيث بدا سفور مسهبا أو غامضا فان بلزاك يبرز الحركات الكبرى ؛ وقد أمكنه بصورة طبيعية جدا أن يدرج في مأساة التراجع الجماعية ، المأساة التي عاشها فيليب دي سوسي ، وكان المشهد « الجندوي » الناتج قميناً بأن يفسح مكانا رحبا تحتله **وداعا في مشاهد من الحياة العسكرية** ، وهي تشهد على أن عدم اتمام مشروع رواية **المعركة** لا يعود الى عدم قدرة بلزاك على تركيب لوحة عن الحرب .

إن بعض الحوادث تفرض نفسها بقوة واقعيتها — اذا كان المقصود بهذه الكلمة القدرة على الايحاء بشدة عن وجود الكائنات والاشياء وكذلك التصوير دون تخفيف العنف ، أو القسوة ، أو الانحطاط البشري .

مشهد آخر من الواقعية البلزاكية يستحق أن يشار اليه في **وداعا** ؛ فستفاني ، بالرغم من تصويرها أحيانا كمخلوقة اوسيانية[1] ، تتميز — وخاصة في الوصف الاول من النص — بجاذبية جسدية تنبىء عن تلك التي تتصف بها **الفتاة ذات العينين الذهبيتين** ، والقارىء مدعو ليتصور في عريها ، فريسة معروضة على الرجال ، « فتاة متوحشة » ، ذات قوام فتان ، يتدلى شعرها حتى أسفل خصرها ، أو أن يشاهد المجنونة، وقد جلست على ركبتي صديقها ، تتلقى قبلاته .

كما أنه في الواقعية ذاتها التي تتصدى في حقيقتها بشدة وجلاء لحياة المجتمع التي تفاجىء في النهاية عندما يستلفت دي سوسي اهتمام سيدة لها بنات بعمر الزواج ، وعندما يتناول الناس بثرثراتهم تعليل انتحار الجنرال .

---

(١) اوسيانية : ما يشبه الملاحم الشعرية المنسوبة الى اوسيان . وهو شاعر ملحمي اسطوري اسكوتلندي من القرن الثالث ، نشرت له في العام ١٧٦٠ اشعار تتميز بالكآبة والتفخيم .

بهذا المقطع ـ القصير جداً إنما الشديد بتأثيره ـ ترتبط القصة **بدراسة طبائع** .

إن **وداعا** هي مع ذلك اكثر من عمل واقعي يقوم على أفكار تعبر عن آراء ، وقد اعطى فيليب برتو كثيرا من الاهمية للدلالات الدينية في الصفحات الاخيرة ، الم يصور جمال ستفاني الميتة وكأنه « ضمان لمستقبل لامع » ؟ الم يقال خاصة أن دي سوسي قد انتحر لان العناية الالهية قد توقفت عن رعايته ؟ يمكن الاعتراض بأن هذه اللهجة مفيدة أدبيا (فهي شاعرية ومؤثرة ، وتبرر الانتحار المتأخر للبطل) ، ويمكن التساؤل عما اذا كانت لا تدرج في سجل امتثالي (للديانة المسيطرة) انفعال بلزاك أمام الموت وضرباته المفاجئة . يبقى أن الكاتب قد أراد أن يبتهل الى القدرة الالهية .

لكن وداعا تضعنا قبل كل شيء أمام الدراسة البلزاكية الانسانية ، فالعمل بمجمله يشكل نوعا من دراسة هي في آن واحد تجريبية ومذهبية لتقهقر الفكر البشري ؛ فالمجرجرون من الجيش الامبراطوري قد حوّلوا بالتعب والبؤس إما الى حالة من البلادة لاتبقي رغبة الا للنوم ، وإما الى حالة حيوانية تستثيرها فقط فكرة التخلص من « الجوع والعطش والبرد » ؛ فجنفييف مثال البليدة العديمة الذكاء ، إنما القادرة على التعبير عن عواطف شديدة ، بينما ستفاني قد ارتدت الى غريزة صرف تقدم المثال عن مخلوقة لا تشعر حتى بحياة انفعالية .

تبرز وداعا ايضا ، بشدة ، نظرية قدرة الفكر الهجومية المؤذية ، فالسيدة دي ڤانديير اصبحت مجنونة عندما انفصلت عن عشيقها ، وعندما عاد اليها رشدها قتلت « بفكرة السعادة وقد عظمت الى اكبر درجة اجتماعية » كما تشير مقدمة **الدراسات الفلسفية** ؛ وعشيقها قد قتل بفكرة انه قد فقدها .

الحق يقال إن مقدمة داڤن قد اكتشفت قدرة الفكر الرهيبة في كل من « الدراسات الفلسفية » والاكثر تميزا في **وداعا** ليس في أن هذا الفكر يجرح أو يقتل وانما في ادراك كيف يقتل .

عندما يكتب بلزاك : « أتت الارادة البشرية بسيولها الكهربائية ، وأحيت هذا الجسم الذي غابت عنه طويلا » فهو لايعني صورة خيالية وانما يرجع **الى** الجهاز المائعي الذي أعطى عنه **لويس لامبر** لمحات وتصور التعبير عنه بشكل اكثر تحليلا في **دراسة حول القوى البشرية** .

ولا شك ان النص كان ينقصه الوضوح قبل أن تأخذ **وداعا** مكانها في **الدراسات الفلسفية** ، لكن التوضيحات المعطاة في العام ١٨٣٠ عن لون البطلة ، وعودة الارادة اليها ، تبرهن على أن نظرية بلزاك الفيزيولوجية كانت حاضرة في القصة منذ ذلك التاريخ .

عمل « فلسفي » منذ الاساس ، وفق المعنى البلزاكي للكلمة . أما القصة « الجنودية » **في وداعا** بتعددية وتعقيد طموحاتها ونواياها ، فانها تتميز بوضوح عن **السياف** ، وهي قصة « جنودية » أخرى ، ظهرت قبلها بعدة اشهر فقط ، في أنها تمثل بعدا إضافياً .

موييز لي ياوانك

* * *

وداعـــــاً

هيّا ، ياناثب الوسط إلى الأمام . ينبغي ان نسرّع الخطى إذا كنا نريد الجلوس إلى مائدة الطعام مع الآخرين . عجّل ، إقفز يامر كيز. هكذا ، حسناً . إنك تثب فوق الأخاديد كوعل حقيقي .

كانت تلك الكلمات صادرة عن صيّاد جالس بسكون عند تخم من غابة « إيل . . . آدام » يكمل تدخين لفافة من تبغ « هافانا » وهو ينتظر رفيقه التائه منذ وقت طويل ولا شكّ في ادغال الغابة . والى جانبه كان اربعة كلاب لاهثة تنظر مثله الى الشخص الذي كان يخاطبه . ولإدراك مقدار مافي تلك الأقوال المكرّرة من تهكّم يجب معرفة ان الصيّاد القادم كان رجلاً بديناً قصير القامة يُفصح بطنه البارز عن السمن المميّز للرسميين في الدولة . لذا كان يعبر بعناء أتلام حقلة واسعة حديثة الحصد شدّما تُعيق حشفاتها سيره . ثم ، كمزيد من عذاب ، كانت أشعّة الشمس المسلّطة مائلةً على وجهه تُجمّع فيه قطرات عرق ضخمة . وكان حرصاً على الاحتفاظ بتوازنه ينعطف تارة الى أمام وتارة الى خلف محاكياً ترجرج عربة في طريق وعر . كان ذلك اليوم من أيام شهر أيلول التي تُتمّ انضاج العنب بحرارات استوائية . و كان الجوّ يُنذر بعاصفة . ومع ان عدّة مساحات فسيحة من سماء

صافية كانت لا تزال تفصل بين سحب كثيفة قاتمة ، كانت تُرى غمائم صُحْر تتقدّم بسرعة مخيفة باسطة من الغرب الى الشرق سدلاً رقيقاً أغبر . ولاقتصار الريح على الهبوب في أعالي الفضاء ، كان الجوّ يضغط نحو الأغوار أبخرة الأرض المُحرقة . فكان للوادي الصغير المحاط بأجمات عالية تحجب عنه الهواء والذي كان يجتازه الصيّاد حرارة أتون . وكانت الغابة المحتدمة الصامتة تُخال ظمأى . وكان الطيور والحشرات خُرساً وذروات الأشجار تكاد لا تُظهر ميْداً . والذين تبقّت لديهم ذكرى صيف ١٨١٩ سيرثُون ولا ريب لمكابدات رجل الحكم المسكين المتكدّد كي يلحق رفيقه الساخر . وقدّر هذا وهو يدخّن لفافته ، من وضع الشمس ، ان الساعة قاربت الخامسة مساءً .

قال الصيّاد العبل وهو يمسح جبينه ويستند الى احدى شجرات الحقل قبالة صاحبه تقريباً اذ لم يعد يجد في نفسه القوة للقفز فوق الخندق العريض الذي يفصله عنه : اين نحن ، بحقّ الشيطان ؟

وردّ الصيّاد المتمدّد على الأعشاب الطويلة الصفراء المكلّلة المنحدر ضاحكاً : أتسألني أنا عن ذلك ؟ . ورمى بعقب لفافته في الخندق هاتفاً : أقسم بالقديس « هوبير »(١) ان لا أعاود التوغّل في منطقة أجهلها مع رجل حكومة ، حتى لو كان مثلك ، ياعزيزي دالبون ، رفيقاً قديماً في المعهد الثانوي .

واجاب الرجل البدين وهو يرنو بنظرة مؤسية الإضحاك الى عمود خشبي على مسافة مائة خطوة منه : اكن ، يافيليب ، ألم تعد تفقه الفرنسية؟ إنك خلّفت دون شكّ عقلك في سيبريا .

---

(١) القديس هوبير Hubert : شفيع وراعي الصيادين في العرف الكاثوليكي الشعبي

وردّ فيليب : فهمت ، وتناول بندقيته ونهض واندفع منطلقاً نحو العمود الخشبي ثم صاح برفيقه : من هنا يادالبون ، من هنا ، دُرْ يساراً ، وأومأ الى سكّة عريضة مرصوفة وتابع يقول . « الطريق من بابيّه الى إيْل — آدام » هكذا سنجد في هذا الاتجاه الطريق الى « كاسان » المفروض ان تتلاقى مع الطريق إلى إيل — آدام .

قال السيد دالبون : هذا صحيح ياسيدي الكولونيل (العقيد) . واعتمر ثانيـــة بقبعتـــه التي كـــان خلعهـــا نيستعملها كمـروحـــة .

وأجاب الكولونيل فيليب : الى الأمام اذن أيها المستشار المحترم . وصفر يستدعي الكلاب التي بدت مطيعة له أكثر من إطاعتها الرجل الحكومي الذي يملكها .

وأردف العسكري متهكّماً : أتعلم ياسيدي المركيز انه لا يزال علينا ان نقطع ما يزيد على ميلين ؟ ان القرية التي نبصرها هناك هي « بابيّه » على ما أظن .

فصرخ المركيز دالبون : ياللّه . إذهب الى كاسان اذا طاب لك ذلك ، لكنك ستذهب بمفردك . امّا أنا فأفضّل ان انتظر هنا على الرغم من العاصفة جواداً تبعث به اليّ من القصر . لقد خدعتني ياسوسي . كان القصد ان نقوم برحلة صيد جميلة قصيرة ، ان لا نبتعد عن كاسّان ، ان نفتّش في الأراضي التي أعرفها . لكن ، بدلاً من ان تسلّي ، جعلتني أعدو كسلوقي منذ الساعة الرابعة صباحاً ولم نتناول كطعام

إفطار سوى كوبين من الحليب . آه ! اذا صادف ان دخلت يوماً طرفا في دعوى فسأجعلك تخسرها ولو كنت دائة مرّة على حقّ .

وجلس الصيّاد المُثبَّط الهمّة على احدى الصوى عند قاعدة العمود ، وألقى بندقيته وبجراب صيده الفارغ وارسل زفرة سديدة

وهتف الكولونيل دوسوسي ضاحكاً : إي فرنسا ، هؤلاءهم مندوبوك . آه يا دالبوني المسكين ، لو كنت قضيت مثلي ستّ سنوات في عمق سيبيريا . . . .

ولم يُكمل ورفع طرفه نحو السماء كما لو ان مصائبه سرّ بين الله وبينه . ثم أضاف : هيّا . إمْشِ . إذا ظللتَ جالساً ستفقد القدرة على متابعة السير .

— ما حياتي يافيليب . إنها عادة متأصّلة عند موظفي القضاء . أقسم بشرفي أني مُنهك . ومع ذلك ، لو أني كنت ظفرت بأرنب . . .

كان بين الصيادَيْن تناقض شديد الندرة في المظهر . كان رجل الحكومة في الثانية والأربعين ولا يبدو متعدّياً الثلاثين ، في حين كان العسكري البالغ الثلاثين يبدو في الأربعين على الأقلّ(١) كلاهما كان يُزيّن صدره الزرّ الأحمر ، رمز حاملي وسام جوقة الشرف من رتبة ضابط . كان بعض خصلات شعر يمتزج فيها السواد والبياض كجناح عقعق تبرز من تحت عمرة الكولونيل ، أما رجل الحكومة فكانت تزيّن صدغيه خصلات شقراء جميلة . وكان الأوّل طوالاً معروقاً

(١) كان بلزاك يتعجل الكتابة في سبيل الحصول على المال ولا يراجع ما يكتب وقد أوقعه ذلك مرارا في أخطاء فادحة وإن طريفة ومنها هنا ان اثني عشر عاماً تفصل بين رفيقي معهد ثانوي .

نحيفاً مليئاً بالحيوية تنمّ غضون جبهته على احتدامات مريعة أو على مكابدات فظيعة بينما كان وجه الآخر طافحاً بالعافية فائضاً بالبهجة لائقاً بابيقوري(١) . وقد سفعت كليهما الشمس شديداً كما كانت مسماتاهما(٢) مـــن جلد أصحر تحمل أثار كـــل الحفر وكل المناقع التي اجتازاها

صاح السيد دوسوسي : هيّا بنا ، لنستأنف السير . بعد أقل من ساعة سنكون في كاسّان أمام مائدة عامرة .

وأجاب المستشار في لهجة مضحكة مؤثّرة : إنك ولا ريب لم تُحبّ قطّ فأنت عديم الرحمة بذات قدر المادّة (٣٠٤) من قانون العقوبات

واعترت فيليب دوسوسي رعشة عنيفة وتثنّى جبينه وعدا وجهه في مثل اكفهرار السماء آنذاك . ومع ان تذكاراً بالغ الإيلام شنجّ كل قسماته لم يطفر دمعه . كان ، شأن الناس الأصلاب ، قادراً على كبت انفعالاته في صميم قلبه . وربّما يجد ، شأن العديد من ذوي النفوس النقيّة ، نوعاً من عدم احتشام في كشف أشجانه حين لا يمكن ان يبلغ وصفٌ عمقَها أو حين يُخشى هزء من لا يريدون فهمها . وكان السيد دالبون من ذوي الحسّ المرهف الذين يحزرون المشاعر ويلمسون سريعاً ما أحدثوه من صدم عن غير تروّ فراعى سكوت صديقه ونهض ونسي تعبه وتبعه في صمت آسفاً ان نقض جرحاً ربّما لم يندمل بعد . وشدّ فيليب على يده شاكراً له بنظرة مؤسية ندمه الأخرس

(١) نسبة الى الفيلسوف الاغريقي « ابيقورس » المنادي بالتمتع بالعيش ونبذ المنغصات .
(٢) المسماة : هي المعروفة « بالطماقات » والتي تغطي الساق في مايلي الحذاء .

وقال له : يوماً ، ما ياصديقي ، يوماً ما سأقص عليك سيرتي . امّا اليوم فلن أستطيع .

واستأنفا سعيهما دون نبس . وحين بدا ان لعج الكولونيل انقشع عاود المستشار كَلَلَه ، وبغريزة ، أو بالأحرى بتوخّي رجل مُجهد . راح طرفه يسبر أعماق الغابة ، ساءل ذُرى الأشجار ، استقصى الممرات أملاً ان يعثر فيها على مأوى يُمكن ان يستضيفه . ولما وصل الى مفترق طرق خال رأى دخاناً خفيفاً يتصاعد بين الشجر . فتوقف وأمعن النظر وتبيّن وسط أجمة عظيمة قاتم خضرة أغصان صنوبريات . وهتف في مثل حبور بحّار يُبصر البر : بيت بيت ! ثم انطلق بسرعة عبر سياج كثيف ، يتبعه عفوياً الكولونيل الذي كان غرق في تأمل عميق . وبمشاهدة جدار يبرز لونه الأبيض في البعيد خلال كتلة الجذوع العجراء الداكنة صاح في حماس : أفضّل ان أجد هنا عجّة وخبزاً بيتياً وكرسيّاً علـى ان اذهب لألتمس في كاستّان أرائك وكمأة ونبيذاً فاخراً .

وصرخ المركيز دالبون ثانية إذ بلغ سوراً عتيقاً أدخن من حديد مشبّك أمكنه ان يبصر من خلاله ، وسط رحبة شديدة الاتّساع عمارة مبنيّة على الطراز المستخدم قديماً لإشادة المجمّعات التزهّدية فراعته شاعرية المنسك : آه ، آه ، يبدو لي أن هذا كان ديراً رئيسياً ، ماأشدّ ما كان أولئك الرهبان المناكيد يحسنون اختيار المواقع .

كان المنزل قائماً عند منتصف المنحدر من جانب الجبل الذي تُشغل قمّتَه قرية « نيرفيل » . وكانت أشجار السنديان الضخمة العريقة في القدم الموجودة في الغابة المحيطة على شكل دائرة عظيمة بذلك المسكن

تجعله عزلة بكامل المعنى . كان القسم الرئيسي المخصص في الماضي للرهبان موجّهاً للجنوب وكانت الرحبة تناهز أربعين « أَرْبَنْتاً »(١) . وعلى مقربة من البيت كان ينبسط مرج أخضر هُيِّئت فيه بتخطيط بديع عدة جداول مترقرقة وغدران أُعِدّت بلباقة دونما صنعة ظاهرة وعلى مسافات متباينة كانت تنتصب أشجار ناضرة أنيقة الهيئة متنوعة الورق . ثم كانت هناك مغائر أريبة التوزيع ومصاطب مَصْمَتة بسلالمها المدرّجة وحواجزها الصدِئة تُعطي ذلك المنتَبذ الموحش مظهراً متميّزاً . كان الفن قد نسق بلباقة فيه إنشاءاته مع أبهى زخارف الطبيعة. وكأن علي الأهواء البشرية ان تهمد عند جذوع تلك الأشجار الكبيرة التي تحظر الدنّو من ذلك الملاذ على صخب الدنيا كما تخفّف عنه حرارة الشمس اللاهبة .

وبعد ان تمتّع السيّد دالبون بالطابع الكمد الذي ألبسته الخرائب ذلك المشهد الذي بدا كأن حلّت عليه لعنة قال في نفسه : ياله من إهمال .

كان أشبه بموضع مشؤوم نزح عنه الناس . كان اللبلاب قد نشر في كل مكان عروقه الملتوية ومطارفه الكثيفة . وكانت طحالب بنّية أو خضراوية أو صفراء أو حمراء تنثر ألوانها الفاتنة على الأشجار وعلى الدكاك وعلى الأسطحة وعلى الحجارة . وكانت النوافذ المنخورة قد براها المطر وثقّبها الزمن ، وكانت الشرفات متحطّمة والمصاطب متهدّمة . وكانت بعض المغاليق لا تُمسكها سوى مفصّلة واحدة .

---

(١) الأربنت arpent : حدة قياس قديمة للمساحة في الأراضي الزراعية تتراوح حسب المناطق بين ثلاثة دونمات ونصف (٣٥٠٠ م٢) وخمسة دونمات (٥٠٠٠ م٢)

وكانت الأبواب المتباعدة المصاريع تبدو عاجزة عن مقاومة مُهاجم . وكانت أغصان الأشجار المُثمرة المُهملة المُثقلة بطاقات الدبق البرّاقة ، تمتدّ الى بعيد دون إيتاء أُكُل . وكانت تغطّي الممرات أعشاب طويلة. كانت تلك الانقاض تضفي على المشهد انعكاسات آسرة وتُلقي في نفس الناظر خواطر حالمة . وكان من شأن شاعر ان يظلّ هناك غارقاً في تأمّل عميق مُعجباً بذلك الاضطراب المفعم بالانسجام وبذلك الدمار الذي لم يكن خالياً من الحلاوة . وفي تلك اللحظة ظهرت بعض اشعّة الشمس من خلال شقوق السحب واضاءت بدفقات من ألوان نيّرة تلك الرحبة نصف الموحشة . فتألقت ألواح القرميد الكامدة وتلألأت الاشنات وتخلّجت على المروج وتحت الأشجار أخيلة غريبة وأنتعشت الوان حائلة وتضاربت تضادّات مثيرة وبرزت في الوضح حتر الأوراق المتنوّعة ، وفجأة غاب الإشراق وإذ بذلك المنظر الذي بدا كأنما تكلّم بصمت ويعود كامداً أو بالأحرى لطيفاً كأنعم تضرّج شفق خريف .

قال المستشار لنفسه وقد صار يرى تلك الدار بعيني مالك فقط : إنه قصر « الحسناء النائمة في الغابة » ، من صاحبه ياترى ؟ لابدّ من أن يكون المرء فائق الغباء كيلا يسكن منزلاً على هذا القدر من الجمال .

وبغتة انطلقت امرأة من تحت شجرة جوز مغروسة الى يمين الباب المشبّك ودون ان تحدث صوتاً مرّت أمام المستشار في ذات سرعة غمامة . وأخرستَ الدهشة من تلك الرؤية . وسأله الكولونيل : ما الأمر يادالبون، ماذا بك ؟

فقال موظف القضاء وهو يلتصق بالسور المشبّك محاولاً ان يرى ثانية الشبح . إني أفرك عينيّ لأعلم ان كنت نائماً أو صاحياً .

واضاف وهو يومئ لفيليب الى كشّة شجرة منتصبة الى يسار السور المشبّك مرتفعة عن الجدار : هي على الأرجح هناك ، تحت شجرة التين تلك .

— هي ، من هي ؟

وردّ السيد دالبون : أوه ، وكيف لي ان اعرف ؟ ثم تابع بصوت منخفض : لقد برزت هناك أمامي امرأة غريبة . بدت لي منتمية الى طبيعة الأطياف لا الى عالم الأحياء إنها لشدّة هيفها وخفّتها وزرقتها شفّافة دون شك . وجهها في بياض الحليب وثيابها وعيناها وشعرها من اللون الأسود . لقد نظرت اليّ وهي تعبر ومع أنّي است رعديداً فان نظرتها الثابتة الباردة جمّدت الدم في عروقي .

وسأل فيليب : أهي جميلة ؟

— لا أدري . لم أبصر من وجهها سوى عينيها .

فصاح الكولونيل : سحقاً لعشاء كاسّان . لنبق هنا . ان لديّ رغبة طفولية في دخول هذه الدارة الغريبة . هل ترى أُطر النوافذ هذه المدهونة بالأحمر وهذه الخطوط الحمراء المرسومة على نتوءات الأبواب والمغاليق ؟ ألا يُخال ان هذا بيت الشيطان ؟ ولربما ورث الرهبان . هيّا ، لنُسرع خلف المرأة البيضاء والسوداء . ثم هتف في ابتهاج مصطنع : إلى الامام.

وفي ذلك الحين سمع الصيّادان صرخة قريبة الشبه من صئي فارة علقت في الفخّ . وأصاخا ورنّ حفيف أوراق بعض الشجيرات خلال

الصمت كخرير موجة مضطربة . لكن ، مع انهما اصغيا كي يسمعا أية أصوات جديدة ظلّت الأرض ساكنة وحفظت سرّ خطى المرأة المجهولة ، هذا اذا كانت خطت .

وصاح فيليب وهو يسير في المنعطفات التي ترسمها جدران الرحبة: ان هذا لعجيب وبعد قليل وصل الصديقان الى درب في الغابة يؤدي الى قرية شوفرّي. وعندما صعدا ذلك الطريق نحو سكّة باريس ألفيا نفسيهما أمام حاجز مشبّك كبير وأبصرا اذ ذاك الواجهة الرئيسية لذلك المسكن الغامض . من ذلك الجانب كان الإهمال على أقصاه . كانت شقوق عظيمة تخدّد حياط أقسام المبنى الاساسية الثلاثة التي كانت تشكّل زاوية قائمة . وكانت شظايا ألواح آجرّ مكدّسة على الأرض وأسطحة معرّاة تنبىء عن تهاون كلّي . كانت بعض الثمار الساقطة تحت الأشجار تتعفّن دون ان يلتقطها أحد . وكانت بقرة ترعى في الاحواز المكتّفة بالشجر وتدوس ازهار الأحواض بينما كانت معزاة ترمّ حصرماً و أماليد عريشة .

قال الكولونيل هنا كل شيء منسجم والإهمال فيه منظّم إن صحّ القول . وشدّ سلسلة جرس غير ان الجرس كان بلا مقرعة .

ولم يسمع الصيادان سوى الصرير البالغ الحدّة لنابض صدىء . ومع ان الباب الصغير المركّب في الجدار قرب الحاجز المشبّك كان شديد البلى فقد قاوم كل مجهود . وقال فيليب لرفيقه : اوه ، اوه ، كل هذا أصبح كثيراً جداً للعجب .

ورد السيد دالبون : لو لم أكن موظف قضاء لاعتقدت أن المرأة السوداء ساحرة .

ولم يكد يُنهي تلك الكلمات حتى قدمت البقرة نحو الحاجز المشبك ومدت اليهما خطمها الساخن كما لو كانت تحس بالحاجة الى رؤية كائنات بشرية . عند ذاك جاءت امرأة – اذا أمكن اطلاق هذه التسمية على المخلوقة المتحجرة التي نهضت من تحت فيء شجيرات – وجذبت البقرة برسنها . كانت تلك المرأة تضع على رأسها منديلاً أحمر تنفلت منه خصلات شعر اشقر شديدة الشبه بشاقة مردن . ولم يكن على كتفيها خمار . كان مئزر من صوف خشن مقلم بأسود وأرمد ، أقصر مما ينبغي ببضع أصابع يمكن من رؤية ساقيها . كان يصح الظن انها تنتسب الى احدى قبائل الهنود الحمر التي تحدها « كوبير »(١) ذلك ان ساقيها وعنقها وذراعيها العاريتين كأنما صُبغت باللون القرميدي ما من لمحة ذكاء كانت تنم على الحياة في وجهها المسطح وكانت عيناها الزرقاويتان كابيتين خاليتين من التعبير وكانت بضع شعرات بيضاء مبعثرة تقوم مقام حاجبيها . وأخيراً كان فمها ملوياً بحيث تخرج منه أسنان رديئة النظام لكن في مثل بياض أنياب كلب .

صرخ السيد دوسوسي : أيتها المرأة .

وتقدمت ببطء حتى السياج المتشبك وهي تنظر ببلاهة إلى الصيادين اللذين بعثت رؤيتهما لديها بسمة كئيبة متكلفة .

– أين نحن ؟ ماذا ذلك المنزل ؟ لمن هو ؟ من أنت ؟ هل أنت من هنا ؟

---

(١) فينيمور كوبر (١٧٨٩ – ١٨٥١) كاتب أميركي عني بوصف حياة قبائل الهنود الحمر في قالب روائي .

على تلك الأسئلة وعلى جم من اسئلة اخرى وجهها اليها بالتوالي الصديقان ، لم تجب بسوى همهمات حلقية كأنها صادرة عن حيوان لا عن مخلوقة انسانية .

قال موظف القضاء : ألا ترى أنها صمّاء بكماء ؟

وصاحت الفلاّحة : « السُمَّحاء »

فقال السيد دالبون : آه ! هذا صحيح . لا يبعد أن يكون هذا دير الرهبان السمحاء السابق .

وتوالت الأسئلة ، لكن الفلاّحة ، شأن طفل متقلّب الأهواء ، احمرّت وعبثت بحذائها الخشبي وفتلت رسن البقرة التي استأنفت الرعي ، ورنت الى الصيادين ودقّقت في كل أجزاء لباسهما . وهزّت وشقشقت ونقنقت لكن لم تتكلم .

وسألها فيليب وهو يحدق فيها كما لو يريد السيطرة بسحر عليها . ما اسمك ؟

قالت ضاحكة في غباء : جنفييف .

وصرخ موظف القضاء : ان البقرة هي حتى الآن المخلوقة الأذكى التي لاقينا . سأُطلق طلقة من بندقيتي عسى يأتينا لسماعها أحد .

وعندما أمسك دالبون سلاحه أوقفه الكولونيل بايماءة وأشار له باصبعه الى المرأة المجهولة التي شدّما أثارت فضولهما . كانت تبدو غارقة في تفكير عميق و كانت مقبلة بخطى وئيدة من ممرّ على مسافة بحيث تيسّر وقت للصديقين كي يتبيناها كانت مكسوّة بثوب بالٍ أسود من أطلس و كان شعرها الطويل يتهدّل في خصلات عديدة على جبينها وحول كتفيها وينحدر حتى أسفل خصرها قائماً مقام خمار لها .

والتعوّدها ذلك الإهمال ربّما ، لم تكن تحسر إلاّ نادراً شعرها الى صدغيها لكن كانت عندئذ تهزّ رأسها بحركة عنيفة ولا تحتاج الى أكثر من مرة لإبعاد ذلك الحجاب الكثيف عن جبهتها أو عينيها . هذا وكان لحركتها ، كما في حركة حيوان ، سداد الآلية الرائع ذاك الـــذي يمكن أن تُخال سرعته عجيبة لـــدى امـــرأة . وشاهدها الصيّادان دهشين تثب الى غصن تفّاح وتتعلّق عليه في خفّة طائر . وتناولت منه ثماراً وأكلتها ثم قفزت إلى الأرض في اللدانة الرشيقة التي نستحبّها عند السناجيب . كانت في اعضائها مرونة تجعل كل حركاتها خالية حتى من ظاهر التعذّر أو الجهد وأخذت تمرح فوق الخضير وتقلّبت عليه فعل الأطفال ثم ، فجأة ، بسطت يديها ورجليها وبقيت متمدّدة في استرخاء وحلاوة وعفوية قطّة صغيرة نائمة في الشمس . ودوّى قصف الرعد في البعيد فانقلبت على الفور وقامت على أربع في الحدّة الخارقة لكلب أحسّ قدوم أجنبي . وبفعل ذلك الوضع الشاذّ إنفرق الشعر الأسود خصلتين تدلّتا على جانبي رأسها واتاحتا لمشاهدي ذلك المنظر الغريب الاستمتاع برؤية كتفين برقت بشرتهما البيضاء كأقاحي الربيع وجيدٍ يمكّن جماله من الحكم على كل مفاتن الجسم »

وأطلقت صرخة مؤسية ونهضت تماماً . كانت للباقة توالي حركاتها ولسرعة قيامها بها تبدو لا كمخارقة من البشر بل كاحدى حوريّات الفضاء التي تغنّت بها أشعار « أوسّيان »(١) وتوجّهت الى بركة .

---

(١) أوسيان : شاعر سكوتلندي أسطوري من القرن الثالث للميلاد نسبت اليه دواوين باللغة الغائيلية تم اكتشافها ونقلها الى اللغات العصرية عام ١٨٠٧

وهزّت قليلاً إحدى ساقيها بقصد خلع حذائها وبدا كأنما حلالها ان تغطّس قدمها البيضاء كالنهاء في الينبوع مستمتعة دون ريب بالتموّجات التي تحدثها فيه والتي تشبه قلائد جوهر كريم ثم جثت فوق حرف المنقع مبتهجة ، كطفلة بغمس خصلاتها الطويله وسحبها بسرعة كي ترى كيف يسقط قطرة قطرة الماء الذي علق بها والذي ، وقد انعكس عليه ضوء الشفق ، صار يشكّل ما يشبه اللؤلؤ النضيم .

وصاح المستشار . إن هذه المرأة مجنونة

وصدرت من جنفيفين صرخة جشّاء كأنما تهتف بالمرأة المجهولة التي انتصبت فوراً منحّية شعرها الى جانبي وجهها . وإذ ذاك وسع الكولونيل ودالبون ان يتبيّنا بوضوح قسمات تلك المرأة التي ، حيناً أبصرت الصديقين ، هفت في بضع وثبات الى الحاجز في خفّة ريم

وقالت بصوت ناعم رخيم « وداعاً » ، لكن دون أن يتم ذلك الترنيم الذي طال انتظار المشاهدين له على ما يشفّ عن أي شعور أو عن أيّ تفكير .

تملّى السيد دالبون منظر أهداب عينيها الطويلة وحاجبيها السوداوين الكثيفين وبشرة ألاة البيض خالصة من أي ضرج . كانت عروق صغيرة زرقاء تتميّز وحدها في الأدم اليقق . وعندما التفت المستشار الى صديقه ليتبين الدهشة التي بعثتها فيه رؤية تلك المرأة الغريبة وجده مطروحاً على العشب وكأنما صريع . وأفرغ السيد دالبون بندقيته في الهواء عسى يهبّ اليه أحد وصرخ يستنجد وهو يحاول إنهاض الكولونيل وعلى دويّ الطلقة نفرت المرأة المجهولة التي كانت لا تزال ساكنة وفرّت بسرعة السهم مرسلة صيحات رعب كحيوان جريح وهامت في المرج مبدية أمارات ذعر عميق . وسمع السيد دالبون قعقعة عربة

على الطريق إلى « إيل — آدم » فالتمس عون المتنزّهين بأن لوّح بمنديله . فانحرفت العربة للتوّ نحو معتزل « السمحاء » وتبيّن السيد دالبون فيها السيد والسيدة دو غرانفيل ، جارَيْه ، اللذين بادرا الى الهبوط من عربتهما ووضعاها في تصرّف موظّف القضاء . ولحسن المصادفة كانت السيدة دو غرانفيل تحمل في حقيبة يدها قارورة أملاح منعشة أشمّوها السيد دوسوسي . وحين فتح الكولونيل عينيه أدارهما نحو المرجة حيث كانت المرأة المجهولة مستمرة في العدْو والصريخ وأصدر غمغمة مبهمة لكن مشحونة بشعور الاستفظاع . ثم عاد فأغمض وهو يومىء لصديقه كما يخلّصه من ذلك المشهد . وترك السيد والسيدة دو غرانفيل للمستشار أمر استخدام عربتهما قائلين في كياسة إنهما سيواصلان نزهتيهما راجلَيْن .

وسأل موظّف القضاء وهو يشير إلى المرأة المجهولة : من هذه المرأة ؟

فأجاب السيد دوغرانفيل · المظنون أنها أتت من مولان . وهي تُدعى الكونتيسّة دو فاندرييه ، ويُزعم انها مجنونة . لكن ، بما أنها ليست هنا الآن منذ شهرين ، لا يسعني أن أجزم لك بصحة كل تلك الأقاويل .

وشكر السيد دالبون السيد والسيّدة دو غرانفيل وركب الطريق الى كاسّان .

وصاح فيليب إذ استعاد وعيه : انها هي ·

فسأله دالبون : هي ، من ؟

قال : ستيفاني . آه ، ميتة وحيّة ، حيّة ومجنونة ، حسبتُ أني سألفظ الروح .

وقدّر القاضي الفطن خطورة النوبة التي حلّت بصديقه فتجنّب استجوابه أو اهاجته . كان يستعجل بفارغ صبر بلوغ القصر ذلك أن التغيّر الذي كان يحدث في سحنته وفي كل شخصية الكولونيل كان يدعو الى الخوف من ان تكون الكونتيسة نقلت الى فيليب داءها الرهيب. وفور ان وصلت العربة سكّة « إيل — آدام » أرسل دالبون الخادم الى طبيب البلدة ، فما ان وُضع الكولونيل في سريره حتى كان الطبيب على رأسه . وقال عقب أن فحصه .

لولا كان السيد الكولونيل تقريباً على الريق لقضى نحبه فعياؤه أنقذه .

وبعد ان بيّن الطبيب الاحتياطات الأولية الواجب اتخاذها خرج ليحضّر بنفسه شراباً مسكّنا.وفي صباح اليوم التالي تحسّن السيد دوسوسي لكن الطبيب شاء ان يسهر عليه بذاته .

وقال للسيد دالبون : اعترف لك ياسيدي المركيز باني خشيت وجود آفة دماغية . فقد أصيب السيّد دوسوسي بصدمة بالغة العنف . وانفعالاته حادّة ، لكن الرجّة الأولى عنده هي التي لها الأثر الفصل . غدا ربما يكون نجا من الخطر .

ولم يخطىء ظن الطبيب وفي اليوم التالي أذن للقاضي برؤية صديقه

قال له فيليب وهو يشدّ على يده : ياعزيزي دالبون ، اني ألتمس خدمة منك : إمْضِ بسرعة الى دير « السمحاء » واستخبر عن السيدة التي رأيناها هناك وارجع على الفور إليّ لأني سأعدّ الدقائق .

ووثب السيد دالبون فوق جواد انطلق به حُضْراً الى الدير القديم . وبوصوله أبصر أمام الشبك رجلاً مذعراً معروقاً باشّ الوجه ردّ عليه بالايجاب، حين سأله اذا كان يقطن ذلك المنزل الخراب وروى السيد دالبون له دواعي زيارته .

وصاح الرجل الغريب : ماذا ياسيدي ، أتكون أنت الذي اطلقت تلك الطلقة من بندقيتك ؟ لقد كدت تقتل مريضتي المسكينة .

— لكني ياسيدي اطلقتها في الهواء ..

— ما كنت لتؤذي السيّدة الكونتيسة بذلك القدر لو أنك أصبتها

— إذن ، ليس هناك ما ناوم بعضاً عليه فرؤية الكونتيسة كادت تودي بصديقي السيد دوسوسي .

فصرخ الطبيب وهو يضم كفّيه : أيكون البارون فيليب دوسوسي ؟ هل ذهب إلى روسيا ، الى معبر نهر « بيريزينا » ؟

— بلى . لقد أخذه الكوزاك وساقوه الى سيبيريا التي لم يعد منها الا منذ أحد عشر شهراً تقريباً قال الغريب : تفضل بالدخول ياسيدي ، وقاد المستشار الى صالة في الطابق الأرضي كان كل شيء فيها يحمل آثار نزوات إتلاف .

كانت آنية من خزف ثمين محطّمة الى جانب ساعة حائط سليمة القفص . وكانت الستائر من حرير مثنّى أمام النوافذ ممزّقة بينما لم تُمسّ الستارة المزدوجة من موصلّي .

قال للسيد دالبون وهما يدخلان : ها انت ترى ياسيدي الأضرار الي أحدثتها المخلوقة الحلوة التي تكرّستُ لها . إنها ابنة اختي . وعلى

الرغم من عجز فنّي لي أمل ان أعيده الى الرشد يوماً بتجربة طريقة لا يستطيع اتّباعها للأسف سوى الموسرين .

ثمّ ، شأن كل الذين يعيشون في عزلة نهباً ، لأحزان متجدّدة ، روى للقاضي باسهاب الواقعة الفريدة التالية ؛ وقد استخلصناها وربطنا بين اجزائها من ذكريات الأشخاص الذين عاشوها

حين غادر المريشال فيكتور ، عند الساعة التاسعة مساء ، مرتفعات « ستودزيانكا » التي دافع عنها طيلة نهار ٢٨ تشرين الثاني ١٨١٢ ، أبقى فيها ألف جندي مكلّفين بأن يحموا حتى اللحظة الأخيرة الجسر الذي لم يزل قائماً من الإثنين المُنشأين على نهر «بيريزينا» كانت تلك الساقة(١) تطوّعت لإنقاذ الحشد الهائل من المتباطئين الذين خدّرهم البرد والذين يرفضون باصرار الانفصال عن التجهيزات . غير ان شجاعة تلك الفرقة الباسلة ستذهب سدى فالجنود المتدفقون جموعاً على ضفاف « بيريزينا » كانوا ، لشقوتهم ، يجدون هناك الكمية العظيمة من عربات الركوب وعربات الذخيرة والمنقولات من كل صنف التي اضطر الجيش الى التخلّي عنها وهو يقوم بالعبور يومي السابع عشر والثامن عشر من تشرين الثاني . كان أولئك المساكين الذين أخبلهم البرد يجدون أنفسهم ورثاء ثروات غير مأمولة فيقيمون في الخيام الخالية ويحطمون المعدّات العسكرية ليبنوا لأنفسهم أكواخاً ويوقدون نيراناً من كل ما تطاله أيديهم ويقطّعون الخيول للاغتذاء وينزعون

---

(١) الساقة : مؤخر الجيش .

قماش العربات تأميناً لغطاء وينامون بدلاً عن ان يواصلوا الطريق ويجتازوا بسلام في الليل نهر « بيريزينا » ذاك الذي سبق ان جعله قدر عجيب بالغَ الشؤم على الجيش . وتبلُّد اولئك الجنود المُتَعسين لايمكن ان يتفهـّمه سوى الذين يتذكـّرون أنهم اجتازوا تلك الفلوات الواسعة من ثلج لاشراب لهم غير الثلج ولا فراش لهم غير الثلج ولامنظور لهم غير أفق ثلج ولا طعام غير الثلج وبعض شمندرات صقِعة وبضع حفنات من دقيق أو شيء من لحم خَيـْل . كان أولئك المنكوبون ، وقد أنهكهم الجوع والعطش والتعب والنعاس ، يبلغون ضفة يبصرون فيها خشباً وأطعمة ومالا يُحصى من تجهيزات مـُخلـّفة ومخيمـّات ، وبتعبير آخـــر مدينة مرتَحلة كاملـــة . كانت قرية « ستودزيانكا » قد قُطِّعت بتمامها واقتُسمت ونُقلت من المرتفعات الى السهل وعلى كل ما كان في تلك العمارة من كآبة وضَياع فقد طابت لأناس لم يكونوا يرون أمامهم الاّ مهامه روسيا المُريعة . وباختصار ، كانت مستشفى رحباً لم يَدُم وجوده سوى بضع ساعات . كان سأم الحياة أو الشعور برفه غير متوقـّع قد جعل كتلة الرجال تلك منيعة على كل فكرة عدا فكرة الاسترواح . ومع أن مدفعية جناح الروس الأيسر كانت ترمي دون انقطاع تلك الجموع المرتسمة كلطخة كبيرة حيناً سوداء وحيناً برّاقة وسط الثلج ، لم تبد تلك القنابل المتواصلة للجمهور الخادر إلاّ كازعاج مُضاف . كان ذلك مثل عاصفة استهان بصاعقتها الكلّ لأنها لن تصيب سوى مائتِين(١) أو مرضى أو ربّما أموات . كان المتعوّقون يصلون في كل لحظة في أفواج وكان أشباه الجثث السّيارة هؤلاء ينقسمون فوراً ويمضون يستعطون مجلساً من نار إلى نار ، فامّا صُدّوا

(١) المائت : من قارب الموت

وذلك ما يحدث في الأغلب ، تكتّلوا من جديد ليحصلوا قهراً على الضيافة التي لم يُمنَحوها باللين . كانوا ، وقد أصمّوا عن صوت بعض الضباط الذين يتوقعون لهم الموت في الغد ، يبذلون مقدار الشجاعة اللازم لاجتياز النهر ، في بناء ملجأ لهم لليلة ، أو في تناول طعام غالباً ما يُودي بهم ، ولم يعد ذلك الموت الذي ينتظرهم يبدو لهم شرّاً بما انه يترك لهم ساعة نوم . وما كانوا يطلقون اسم « الشرّ » إلاّ على الجوع والعطش والبرد . وحين لم يتبقّ خشب ولا نار ولا غطاء ولا كِنّ ، نشبت معارك رهيبة بين القادمين خالين من كل شيء وبين الأغنياء سكّان البيوت صُرع فيها الأضعفون . وفي النهاية جاء وقت لم يعد للذين طردهم الروس سوى الثلج كمأوى فاضطجعوا فيه ثم لم ينهضوا ابداً . شيئاً فشيئاً غدت تلك الكتلة من كائنات شبه هالكة على درجة من الكثافة ومن الصمم ومن البلادة ، ومن الإغتباط ربّما حتّى ان المريشال فيكتور ، الذي كان حاميهم البطل اذ ثبت امام عشرين الف روسي يقودهم « فيتجنستاين » ، اضطر إلى شقّ طريق له بالقوّة عبر تلك الغابة من ناس كيما يمكّن من إجتياز « بيريزينا » الصناديد الخمسة آلاف الذين يتوجّه بهم إلى الامبراطور . كان أولئك التعساء يُؤثِرون ان يُدعَسوا على ان يرحلوا ويهلكون صامتين مبتسمين لنيرانهم الهامدة ودون التفكير في فرنسا .

لم يَبْلغ دوق بيلّون (المريشال فيكتور » الجانب الآخر من النهر إلاّ في العاشرة مساء . وقبل ان يسلك الجسور المؤديّة الى « زمبلين » عهد بمصير ساقة « ستودزيانكا » الى الجنرال « إيبليه » مُنقذ جميع الذين خرجوا سالمين من دواهي بيريزينا . وعند منتصف الليل تقريباً غادر ذلك

الجنرال الشهم ، يتبعه ضابط باسل ، الكوخ الصغير الذي كان يُشغله بجانب الجسر وراح يتأمّل مشهد المعسكر الواقع بين ضفّة بيريزينا وبين الطريق من بوريزوف الى ستودزيانكا . كانت مدفعية الروس قد توقّفت عن القصف ، وكان ما يعجز الحصر من البُؤر الشاحبة الفاقدة الوهج وسط ذلك الركم الممتّد من الثلج ينير في مكان أو آخر وجوهاً تجرّدت من كل سيماء بشرية . كان هناك نحوٌ من ثلاثين ألفاً من المساكين المنتمين الى جميع الأمم التي انقضّ بها نابليون على روسيا يخاطرون بأرواحهم في لا مبالاة فظّة .

قال الجنرال للضابط : لتنْقِذْ كل هؤلاء . غداً صباحاً يكون الروس قد استولوا على ستودزيانكا . يجب إذن حرق الجسر حين يطلْعون علينا .فاقداماً ياصاحبي . أوسع لنفسك مسلكاً الى التلّ . قلْ للجنرال فورنييه ان الوقت قد يفوته لإخلاء موقعه واختراق كل هذا الحشد وعبور الجسر . وعندما تراه بدأ مسيرته إتبْعه . وبمساعدة بعض السليمين من الرجال أحرِق دون رحمة المخيمات والتجهيزات وحاملات الذخيرة والعربات وكلّ ما اشبه . اطرد جميع هؤلاء الناس الى الجسر . أجبر كلّ ذي ساقين على اللجوء الى الضفّة المقابلة ، إن الحريق هو الآن وسيلتنا الأخيرة لو ان المريشال برتييه تركني أتُلف هذا العتاد المُعرْقل لما كان أغرق هذا النهر سوى جاسريّ (١) المساكين ، أولئك البواسل الخمسين الذين خلّصوا الجيش والذين سيُنسَون .

ورفع الجنرال يده الى جبينه ولزم الصمت . كان يخمّن ان بولونيا ستكون مدفنه(٢) وان لا صوت سيعلو تخليداً لأولئك الأماثل الذين

---

(١) الجاسر : الذي يبني الجسور

(٢) لقي الجنرال إيبليه حتفه فعلا في بولونيا بعد أيام من مغادرته روسيا

مكثوا بالماء ، ماء البيريزينا ، ليغرزوا فيه حاملات الجسور . واحد منهم فقط لا يزال حيّاً ، أو بالأحرى ، لا يزال يعاني الألم في احدى القرى وقد تجاهله الجميع . وانطلق المرافق. ولم يكد ذلك الضابط الهمام يصبح على بعد مائة خطوة نحو ستودزيانكا حتى أيقظ إيبليه عدداً من جاسريه الشكاة وباشر عمله البار بأن احرق المخيّمات المنصوبة حول الجسر وأكره بذلك النيام المحيطين به على اجتياز البيريزينا . وفي تلك الأثناء كان المرافق الشاب قد وصل بعد جهد الى البيت الخشبي الوحيد الذي ظلّ قائماً في ستودزيانكا .

وسأل رجلاً أبصره في الخارج : وهل هذا الكوخ ممتلىء الى هذا الحدّ بالناس ياصاحبي ؟

وردّ الضابط دون ان يلتفت ودون ان يتوقّف عن تخريب خشب البيت بسيفه : اذا استطعت الدخول تكون جندياً ماهراً .

قال المرافق وقد تعرّف أحد أصدقائه من نبرة الصوت : أهذا أنت يافيليب ؟

وأجاب فيليب دوسوسي وهو ينظر الى المرافق الذي كان مثله لم يتعدّ ثلاثاً وعشرين سنة : نعم . آه آه ، اهذا أنت ياعزيزي . كنت أظنّك في ذلك الجانب من النهر اللعين . وتابع وهو يكمل سلخ لحاء الخشب . ليعطيه جواده كعلف : هل جئت لتُحضِر لنا معجّنات سكّرية ومربيّات نتحلّى بها بعد الطعام ؟ إذن ستلقى كل ترحيب . إني أبحث عن قائدك لإبلاغه من قبل الجنرال ايبليه وجوب التوجّه نحو زمبين . لن يتسع وقتكم لأكثر من اختراق هذا الكوم من الجثث التي سأحرقها بعد قليل كيما اضطرها الى المشي

– انك تكاد تُدفئوني . خبرك هذا عرّقني لديّ صديقان ينبغي ان أنقذهما . آه لولا هذان الحملان كنتُ الآن في عداد الأموات . لأجلهما اعتني بفرسي ولا آكلها . أرجوك هل معك كسرة خبز . لقد امضيت ثلاثين ساعة دون ان اضع شيئاً في بطني وقاتلت كمجنون لأحتفظ باليسير المتبقّي لي من حرارة وشجاعة .

– يا مسكين يافيليب . لا شيء ، لا شيء . لكن هل جنرالك هنا ؟

– لا تحاول الدخول . هذا العنبر يحوي جرحانا . تابع الصعود الى أعلى . ستصادف على يمينك شبه حظيرة خنازير . الجنرال هناك . وداعاً ياصاحبي الطيّب ، إذا كُتِب لنا أن نرقص « الترينيس » يوماً في غرفة في باريس .

ولم يُكمل جملته فقد هبّت ريح الشمال في تلك اللحظة بحدّة مفاجئة جعلت المرافق يمشي كيلا يجمد وجعلت شفتي الماجور(١) فيليب تقرسان . وعمّ الصمت على الأثر لا تقطعه سوى التأوّهات المنطلقة من البيت والصوت الخافت الذي كانت تصدره فرس السيد دوسوسي وهي تقضم عن جوع وهيج لحاء الأشجار التي بُني منها المنزل . وأعاد الماجور سيفه الى غمده ثم أمسك فجأة عنان الدابّة العزيزة التي تمكّن من الاحتفاظ بها وانتزعها على الرغم من مقاومتها من الطعام الهزيل الذي بدت مشتهية له .

– تعالي يابيشيتّ(١) ، تعالي . ليس إلاّك يقدر على انقاذ ستفياني . لابأس بعد حين سيتاح لنا ان نستريح ، ان نموت ، ربّما .

---

(١) ماجور : رتبة عسكرية ألغيت في الجيش الفرنسي وبقيت في سائر الجيوش تعادل « رائد » في الجيوش العربية .

(١) بيشيت : تصغير « بيش » الفرنسية وهي « الأروية » أو انثى الوعل

وأخذ فيليب ، المرتدي معطفاً من فراء يدين له ببقائه حياً ونشيطاً ، يركض ضارباً بقدميه الثلج المتصلّب لإدامة دفئه . وما كاد الماجور يتقدّم خمسمائة خطوة حتى أبصر ناراً عظيمة حيث كان ترك عربته صباحاً في حراسة جنديّ مُسنّ . وتملّكه قلق مريع . وشأن جميع الذين سيطر عليهم خلال تلك الهزيمة عزم جبّار ، وجد في سبيل إعانة صديقيه قوى ذاتية ما كان ليجدها لخلاص نفسه . ولم يلبث ان وصل بُعد خطوات من ثنيّة في الأرض كان وضع في قلبها في مأمن من القنابل امرأة شابة هي رفيقة طفولته وكنزه الأغلى .

وعلى مسافة قريبة من العربة كان نحو ثلاثين من المتلكّئين مجتمعين حول موقد هائل يغذون ناره بالقاء ألواح خشبية وسقوف حاملات ذخيرة وعجلات وهياكل عربات . كان اولئك الجنود ولا ريب آخر القادمين بين الذين يشكّلون ، من الاخدود العريض المرتسم عند اسفل ستودزيانكا وحتّى النهر المشؤوم ، ما يشبه محيطاً من رؤوس ومن نيران ومن أكواخ ، بحراً حيّاً تحرّكه اهتزازات تكاد لا تُحسّ وينطلق منه هدير خافت ممتزج أحياناً بصراخ رهيب . كان اولئك المساكين ، بدافع من الجوع والحنو ، قد دخلوا عنوةً ولا شك العربة إذ كان الجنرال الهرم والمرأة الشابّة ، اللذان وجدوهما فيها راقدَين على أسمال ملتفّين بمعاطف وفراء ، جاثيين حينذاك أمام النار وكان أحد بابي العربة محطّماً وما ان سمع الرجال المتجمعون حول الموقد خطْوَ الفرس والماجور حتى علت فيهم صيحة هيجٍ ساقها السَغَب :

— فرس ! فرس

كانت اصواتاً عدّة متّحدة في زعقة .

وصرخ بعض الجنود وهم يسدّدون بنادقهم الى الفرس : إبتعد حاذر .

ووقف فيليب أمام فرسه وهو يقول : أيها الأوغاد ، سألقيكم كلّكم في ناركم . هناك على التلّ أحصنة ميّتة ، اذهبوا لإحضارها

وردّ مقذّف(١) عملاق : أليس هذا الضابط محبّاً للنكتة ؟ واحد ، إثنان هل تتنحّى ؟ لا ؟ حسناً ، كما تشاء إذن .

وغطّت على صوت الطلقة صيحة امرأة . ولم يُصَب فيليب لحسن حظّه لكن بيشيت سقطت تصارع الموت فبادر ثلاثة رجال الى الإجهاز عليها بالحِراب .

قال فيليب وهو يتميّز غيظاً : يالكم من متوحّشين . دعوني آخذ الدثار وطبنجتيّ .

فأجاب المقذّف : خذ الطبنجتين . امّا الدثار فهذا رجلٌ لم يذق شيئاً منذ يومين وهو يرتجف داخل بزّته الرقيقة البالية . إنه جنرالنا . . .

وسكت فيليب حين أبصر رجلاً مهترىء الحذاء مثقّب البنطال في عشرة مواضع ولا يغطّي رأسه سوى عمرة خفيفة تجمّد فوقها الثلج . وتناول طبنجتيه بسرعة وجرّ خمسة رجال الفرس إلى قبالة الموقد وأخذوا يقطّعونها بمهارة جزّارين من باريس . وذهب الماجور فجلس الى جانب المرأة التي اصدرت صرخة رعب حين تعرّفته وألفاها ساكنة جالسة على

(١) كلمة grenadier الفرنسية تعني رامي القذائف اليدوية (ولم تكن مخترعة انذاك) وكذلك أحد افراد فرقة خاصة من الجنود النخبه المتمرسين . و « المقذف » من يرمي به كثيراً في المعارك .

أحد وُسُد العربة تستدفيء ونظرت اليه صامته دون ان تبتسم له . وشاهد فيليب عند ذاك قريباً منه الجندي الذي أوكله بحراسة العربة . كان المسكين جريحاً . لقد رزح أمام الكثرة فاستسلم للمتخلّفين الذين هاجموه بيد أنه ، شأن الكلب الذي يدافع حتى آخر لحظة عن عشاء سيّده ، أخذ سهمه من الغنيمة وصنع لنفسه ما يشبه المعطف من قطعة قماش أبيض . كان مشغولاً بتقليب قطعة من لحم الفرس ورأى الماجور في وجهه البهجة التي بعثتها فيه تحضيرات المأدبة . وكان الكونت دوفانديير ، الذي كأنما أصيب منذ ثلاثة أيام بوهن في الإدراك جالساً لصق زوجته يحدّق في تلك اللهب التي بدأت حرارتها تبدّد خدره . ولم يُبد اكتراثاً للخطر ولمجيء فيليب ولا أيضاً للمعركة التي انتهت بنهب العربة قبل قليل . وأمسك دوسوسي اولاً يد الكونتيسة الشابّة كما تأكيداً لمودته وإعراباً عن الأسف الذي يملؤه لرؤيتها على هذه الحال التي بلغتها من الشقاء . وظلّ صامتاً الى جانبها جالساً على كوم ثلج يسيل وهو يذوب . واستسلم بدوره لسعادة التدفّؤ ، ناسياً الخطر ، ناسياً كل شيء . واكتسى وجهه ، على الرغم منه ، تعبير فرح غبيّ وانتظر مُتحرّقاً اشتواء القطعة من لحم فرسه المعطاة لجنديّه . كانت رائحة ذلك اللحم المُفحّم تهيج جوعه وكان جوعه يُخرس قلبه وشجاعته وحبّه . وتأمّل دونما غضب نتائج نهب عربته . كان جميع الرجال المحيطين بالموقد قد تقاسموا الأغطية والوُسُد ومعاطف الفرو والفساتين وألبسة النساء والرجال العائدة للكونت وللكونتيسّة وللماجور . والتفت فيليب ليعلم إذا بقيت فائدة تُجنى من البدن فرأى على ضوء اللهب الذهب والجواهر والماسات والأواني الفضّية مبعثرة لم يخطر لأحد أن يستولي على أية قطعة منها . كان كلّ من الأشخاص الذين جمعتهم

المصادفة حول تلك النار ملتزماً صمتاً فيه ما يبعث الاستفظاع ولا يفعل غير ما يعتبره ضرورياً لراحته . كان في ذلك البؤس ما يثير الضحك . كانت الوجوه التي شنّجها البرد ملطخّة بطبقة من الطين خطّت فيها الدموع ، بدءاً من العيون حتى اسفل الخدود ، حزّاً يبين ثخن ذلك القناع . وكانت قذارة اللحى الطويلة تزيد اولئك الجنود قباحة منظر . كان بعضهم ملتفاً بأوشحة نسائية والآخرون متدثرين شبارق خيل(١) أو أغطية ملوّثة بالوحل أو أسمالاً مشبَعةً بجمد يذوب . وكان فيهم من يلبس سوّاقاً(٢) في قدم وحذاء في الأخرى . وإجمالاً لم يكن بينهم من ليس في كسوته شذوذ مضحك . وحيال أمور مثيرة بهذا القدر للسخرية كان اولئك الرجال مقطّبين متجمعّين . لم يكن يهتك الصمت غير قضقضة الخشب وفرقعات الشرر وجلبة المعسكر البعيدة وضربات السيوف التي كانت ينهال بها الأشدّ جوعاً على بيشيت ليقتطعوا منها الأجزاء الأشهى . وكان هناك مساكين متعبون أكثر من غيرهم ينامون فان سقط أحدهم في النار لم يتحرّك جيرانه لانتشاله . كان المنطق الصارم لأولئك انه ، اذا لم يكن ميتاً ، سيدعوه الحرق الى اتّخاذ مكان آمن . واذا صحا البائس في النار وهلك لم يجد من يرثي له بل كان بعض الجنود ينظر الى بعض كما ليبرّروا استخفافهم بلامبالاة الآخرين . وعاينت الكونتيسة الشابة مرّتين ذلك المشهد وظلّت صامتة . وعندما نضجت الشرائح الموضوعة على الفحم أشبع كلٌ جوعه بذلك النهم الذي يبدو لنا مقززاً عند الحيوانات .

---

(١) الشبرق : هو في العربية القطعة من الثوب وفي الفرنسية جلد خروف يوضع على ظهور الجياد .

(٢) السواق : الحذاء الطويل الساق المعروف بالجزمة .

وصرخ المقذّف الذي أردى الفرس : انها اوّل مرة يـرى فيها ثلاثون من الجنود المُشاة على جواد .

وكانت تلك الفكاهة الوحيدة الشاهدة على روح النكتة القومية .

وما لبث معظم اولئك الجنود المساكين ان تزمّلوا بثيابهم واتّخذوا مكاناً فوق الواح خشبية أو فوق كل ما يمكن ان يحميهم من ملامسة الثلج وناموا غير آبهين للغد . وحين دفىء الماجور وهدأ سغبه أثقلت جفونه حاجة الى النوم قاهرة . وخلال الهنيهة التي غالب فيها النعاس تأمّل تلك المرأة الشابة التي ، وقد أدارت وجهها نحو النار لتنام مكّنت من رؤية عينيها المغمضتين وجانباً من جبينها . كانت ملتفّة بفروة وبمعطف ثخين من معاطف الخيّالة . وكان رأسها مسنداً الى مخدة ملطّخة بالدم . كانت قبعتها الأستراخان المبثبتة بمنديل معقود تحت الذقن يحمي وجهها من البرد قدر الإمكان . وكانت قد خبأت قدميها تحت المعطف . وبتجمعّها كذلك على ذاتها لم تكن تشبه حقّاً أيّ شيء أكانت أزرى بائسات المؤن الملحقات بالعسكر ؟ أكانت تلك المرأة الفاتنة قبلة العشاق وملكة حفلات باريس الراقصة ؟ المؤسف أن عين وديدها الأخلص نفسه لم تعد تلحظ مسحة من أنوثة في ذلك الكوم من خرق وثياب رثّة . فقد سحق البردُ الحبّ في جوانح امرأة . ومن خلال الأغشية الكثيفة التي أسدلها النعاس الأقوى سلطاناً على مُقلتي الماجور لم يعد هذا يبصر الزوج والزوجة الا كرسمين عديمي الهيئة . ولهبات الموقد ، وتلك الشخوص المضطجعة وذلك القرس الفظيع المزمجر على مسافة خطوات من حرارة سريعة الزوال ، كلّ ذلك كان حلماً . كانت فكرة مُلحِة تُرعب فيليب : كان يقول لنفسه : سنموت جميعاً

إذا نمت ، لا أريد ان أنام ، وقد نام . وعلا ضجيج هائل وانفجار أيقظا السيد دوسوسي بعد ساعة من رقاد ، وعاوده فجأة شعوره بواجبه والخطر المهدّد صديقته . وأطلق صرخة أشبه بزئير . كان هو وجنديُّه الوحيدين الصاحيين . وشاهداً بحراً من نار يُبرز أمامهما في ظلمة الليل حشداً من بشر و هو يُحرق المخيّمات والأكواخ . وسمعا صيحـات اغتياظ وزعقـات . وابصرا ألوفاً من زُلمات(١) حسرى ومن سحنات حانقة . ووسط ذلك الجحيم كان رتل من الجنود يشقّ طريقه نحو الجسر بين سياجين من جثث .

وهتف الماجور : انه انسحاب ساقتنا . لا أمل بعد الآن

وقال صوتٌ صديق : بني أبقيت على عربتك يافيليب .

ولما التفت سوسي تعرّف المرافق الشابّ على ضوء اللهب

وردّ الماجور : آه لقد ضاع كلّ شيء . انّهم أكلوا فرسي . ومع ذلك كيف استطيع أن أحمل على السير هذا الجنرال الأبله وزوجته ؟

— خذ ضِرامة يافيليب وهدّدهما بها

— أأهدّد الكونتيسّة ؟

فصاح المرافق : الوداع . لن يمهلني الوقت لأكثر من عبور هذا النهر القاتل . ويجب ان أعبره فلي أمّ في فرنسا . يالها من ليلة ! ان هذا الجمع يفضّل البقاء فوق الثلج ومعظم هؤلاء التعساء يُؤثرون أن يُحرَقوا على ان ينهضوا . بعد ساعتين سيبدأ الروس في التحرّك . أؤكد لك انك

---

(١) الزلمة : الشخص يرى من بعيد

سترى البيريزينا مرّة اخرى مليئاً بالجثث . فيليب ، فكّر في نفسك. ليس لديك خيول ولست قادراً على حمل الكونتيسة .

واضاف وهو يمسك ذراعه : لذلك هيّا ، تعال معي

– كيف ياصديقي ، أأتخلّى عن ستيفاني . . .

وأمسك الماجور الكونتيسة وأوقفها وهزّها بفظاظة رجل أعْيتْه الحيلة وأجبرها على الاستيقاظ . ونظرت اليه بعين جامدة كابية فقال لها : يجب ان نمشي يا ستيفاني وإلاّ متناهنا .

وكان كل جواب الكونتيسة ان حاولت العودة إلى الإضطجاع لتنام . وتناول المرافق جذْوَة ولوّح بها أمام وجه ستيفاني . وصرخ فيليب : لننقذها على الرغم منها . وحملها بين ذراعيه ووضعها في العربة .

ورجع يستعين بصديقه وحمل كلاهما الجنرال الشيخ غير عارفين ان كان ميتاً أو حيّاً ووضعاه الى جانب زوجته . ودحرج الماجور برجليه الممدّدين على الأرض واستردّ منهم ما كانوا سلبوه وكدّس جميع الأمتعة فوق الزوجين وألقى في ركن من العربة بضع قطع مشويّة من فرسه . وسأله المرافق .

ماذا تبغي ان تفعل ؟

قال الماجور : ان أجرّها

– أنت مجنون .

– هذا صحيح . قالها فيليب وهو يشبك ذراعيه على صدره وبغتة خطرت له فكرة يائسة .

قال لجنديّه وهو يمسك بذراعه السليمة : إني سأأتمنك عليها لمدّة ساعة . واعلمْ ان عليك تفضيل الموت على ان يقرب أيّ كان من هذه العربة .

وأخذ الماجور ماسات الكونتيسة بيد وجرّد سيفه بالأخرى وراح يضرب بصفحة أولئك من النيام الذين خمّن أنهم الأكثر إقداماً ونجح في ايقاظ المقذّف العملاق واثنين استحالت عليه معرفة رتبتيهما .

قال لهم : لقد انتهى امرنا

وأجاب المقذّف : هذا ما أعلمه جيداً لكن لاآبَه له .

– قال : حسناً ، مادام لابّد من الموت أليس الأجدر بيع الحياة في سبيل امرأة جميلة ومحاولة رؤية فرنسا ثانية .

قال أحد الرجلين وهو يتدحرج فوق الثلج : إني أفضل النوم فان عدت الى ازعاجي أيها الماجور سأغمد حربتي في بطنك .

وسأل المقذّف : ما الموضوع ياضابطي ؟ ان هذا الرجل ثمل . إنه باريسي ، وأهل باريس يحبّون التبجح بحرّية .

وصرخ الماجور وهو يقدّم اليه عقداً ماسّياً : سيكون هذا لك اذا وافقت على ان تتبعني وتقاتل بشراسة . ان الروس على مسافة عشر دقائق من المشي . ولديهم جياد . سنهجم على بطّاريتهم الأولى ونعود بحصانين .

– لكن ماذا عن الحرس ياماجور ؟

قال للجندي : ان أحدنا نحن الثلاثة ، وقطع حديثه ونظر الى المرافق : ستأتي ياهيبوليت ، اليس كذلك ؟

ووافق هيبوليت بهزّة رأس .

وتابع الماجور يقول : ان أحدنا سيتولّى أمر الحارس . ثم ربّما انهم نائمون أيضاً أولئك الروس الملاعين .

قال المقذّف : لابأس ياماجور . أنتشجاع وطيّب . لكن ستذكرني في تقريرك ؟

— نعم ، اذا لم تُقتَل هناك .

واضاف الماجور متوجّهاً الى رفيقيه : هيبوليت ، وأنت يامقذّف ، اذا هلكتُ أنا ، عِداني أنكما ستبذلان وسعكما لخلاص الكونتيسة .

وصرخ المقذّف : موافق .

وتوجّهوا نحو الخطوط الروسية الى البطاريات الّتي كانت قصفت بمنتهي الشدّة جمهور المساكين المتمدّدين على ضفّة النهر . وبعد هنيهة من انطلاقهم دّوى صوت عدْو جوادين فوق الثلج وراحت البطارية الّتي استيقظت تُرسل وابلاً من القنابل كانت تمرّ فوق رؤوس النُوَّم . وكانت خطوات الجوادين متسارعة حتى لتُظنّ طرقات بيطار على حدْوة . كان المرافق الشهم قد صُرع . وكان المقذّف العملاق قد سلم . وكان فيليب ، وهو يدافع عن صديقه ، قد تلقّى طعنة حربة في كتفه غير أنه كان متشبّثاً بعرف الجواد مُطبقاً بساقيه عليه بحيث بدا الحيوان كأن محصوراً في مَلْزمة .

وصاح الماجور اذ ألفى جنديّه ثابتاً على وضعه والعربة في مكانها : الحمد للّه .

وقال المقذّف : اذا كنت مُنصفاً ياضابطي وجب ان تحصل لي على وسام . لقد أجدنا الضِراب والطِعان ، أليس كذلك .

– إننا لم نفعل شيئاً بعد . لنِشُدّ الجوادين الى العربة . خذ هذه الحبال .

– إنها لن تكفي .

– إذن خذ ماعلى هؤلاء النيام من أوشحة

وصرخ المقذّف وهو يجرّد أوّل واحد : آه ، هذا السُخرَة ميت . يالها من سخرية ، إنهم ميّتون .

– الجميع .

– نعم الجميع . الظاهر ان لحم الجواد عسير الهضم حين يؤكل بمرقة الثلج .

وأرعدت تلك الكلمات فيليب . ذلك ان القرّ تضاعف . وقال في نفسه : ربّاه هل سأفقد امرأة انقذتها الى الآن عشرين مرّة .

وهزّ الماجور الكونتيسّة صائحاً : ستيفاني ، ستيفاني .

وفتحت الشابّة عينيها .

– سيدتي ، لقد نجونا .

وكرّرت وهي تهوي ثانية . نجونا . . .

وشُدّ الجوادان بشكل مُلَهْوَج الى العربة وامتطى الماجور احدهما حاملاً سيفه بيده السليمة ممسكاً العنان باليد الأخرى مسلّحاً بطبنجتيه وامتطى المقذّف الجواد الثاني . وكان الجندي الهِرم الذي جمدت قدماه قد أُلقي في عرض العربة فوق الجنرال وفوق الكونتيسّة وبَحثّ من

ضربات السيف مضى الجوادان بما يشبه الهياج في السهل حيث كانت صعوبات لا تُحصى تنتظر الماجور . وما لبث ان غدا التقدّم مستحيلاً دون التعرّض لدعس رجال ونساء بل وأطفال نائمين كانوا يرفضون التزحزح عندما كان يوقظهم المقذّف . وعبثاً بحث السيد دوسوسي عن الطريق التي شقّتها الساقة لنفسها قبل حين وسط ذلك الحشد فقد امّحت كما يمحّي أثر السفينة في البحر . ولم يعد يتقدّم الاّ ببطء وغالباً ما يوقفه جنود يهددونه بقتل جواديه .

قال له المقذّف : أتريد الوصول

قال الماجور : ولو كلفّني ذلك دمي . ولو كلفّني العالم بأسره

قال : سرْ إذن . لا تُصنَع عجّة دون كسر بيض .

ودفع مقذّف الحرس الامبراطوري الجوادين فوق الناس . وأدمى العجلات وقوّض الخيام خاطّاً لنفسه تلَمين من قتلى عبر ذلك الحقل من البشر . لكن لنعترفْ له من باب الإنصاف بأنه لم يتوقف أبداً عن الصراخ بصوت هادر .

أبعِدوا ، أيّها الجيَف .

وصاح الماجور : يالشقوة هؤلاء

وردّ المقذّف وهو يحمس الجوادين وينخزهما بطرف سيفه : لا يحزنك الأمر ، هذا أو البرد ، هذا أو المدفع . . .

وفجأة أوقفت سيرهما كارثة كان مقدّراً أن تحدث لهما قبل مدّة من ذلك اخّرتها مصادفة عجيبة ، فقد انقلبت العربة

وصرخ المقذّف دون ان يضطرب : كنت أتوقّع هذا .

ثم أضاف : اوه ، اوه ، ان صاحبنا قد مات

فقال الماجور : مسكين أنت يالوران

وسأل المقدّف : لوران ؟ أهو من لواء القنّاصة الخامس

– نعم .

– إنه ابن عمّي – لابأس . ليست الحياة مُسرّة بحيث يؤسف عليها في مثل هذا الجوّ

ولم يتمّ رفع العربة وتخليص الجوادين دون إضاعة طويلة لا تعوّض للوقت وكانت الصدمة من العنف بحيث ان الكونتيسة الشابة التي استيقظت وصحت عن خدرها ، نفضت عنها اغطيتها ونهضت . وقال لها الماجور :

نحن على مسافة خمسمائة خطوة من الجسر . سنعبر البيريزينا . في الجانب الآخر من النهر ياستيفاني سأكفّ عن مضايقتك . سأدعك تنامين ، سنكون في أمان ، سنصير الى « فيلنا » . أرجو الله ان لا تتذكري أبداً ماكلّف انقاذك من ثمن .

– هل أنت جريح .

– انه جرح بسيط .

وحانت ساعة البلاء وأعلنت مدافع الروس طلوع النهار . فمن ستودزيانكا التي احتلّوها راحوا يقصفون السهل وعند اوائل اشراقات الصباح شاهد الماجور طوابيرهم تتحرّك وتتشكّل على التلال . وعلا صياح ذعر من قلب الجموع التي هبّت منتصبة في لحظة فقد أدرك كلّ غريزياً الخطر المهدّد له واتّجه الجميع نحو الجسر في اندفاع موجة . كان الروس ينحدرون بسرعة الحريق . وزحف الجمهور رجالاً ونساء وأطفالاً وخيولاً الى الجسر ولحسن الحظ كان الماجور والكونتيسة لا يزالان بعيدين عن النهر . وكان الجنرال ايبليه قد اشعل النار للتّوفي

المخيّمات على الضّفة المقابلة . وعلى الرغم من التنبيهات المنذرة الذين كانوا يتزاحمون الى معبر النجاة ذاك لم يتراجع أحد . ولم ينهد الجسر محملاً بالناس وحسب بل إن اندفاع سيل البشر القاصد ذلك الشاطىء المميت كان جارفاً الى حد ان لفيفاً قُذف في اللّجة كانهيار جبلي . ولم يُسمع صراخ بل صوت حجر أُلقي في الماء . ثم غُطّي البيريزينا بالجثث . وكانت حركة ارتداد الذين تراجعوا في السهل للنجاة من من ذلك الموت على درجة من العنف ، وكان اصطدامهم بالمتقدّمين على درجة من الهول بحيث قضى عدد عظيم نحبهم خنقاً . ودان الكونت والكونتيسّة دوفانديير بحياتهما لعربتهما . فالجوادان ، بعد ان دعسا وهرسا جمّاً من المحتضَرين، سقطا مسحوقين ، مداسين تحت أقدام إعصار بشري مندلق على الضفاف . ووجد الماجور والمقذّف خلاصهما في بأسهما كانا يقتلان كيلا يُقتلا . ذلك الهيج من القوى البشرية ، ذلك المدّ والجزر من أجساد يحفزها ذات التحرّك كانت نتيجته أن تُرك لهنيهات شاطىء البيريزينا مُقفراً . كانت الجموع قد انقلبت الى السهل . ولئن ألقى بضعة رجال بأنفسهم في النهر من أعلى الضفة فما كان ذلك في أمل بلوغ الشاطىء الآخر الذي يعني عندهم فرنسا بقدر ما كان بغية تجنب النفي الى سهوب سيبيريا . وصار اليأس مُلهماً لبعض المتهوّرين . فقد قفز ضابط من كتلة جليد الى كتلة جليد حتى الجانب المقابل . وزحف جندي بصورة عجيبة فوق كوم من الجثث وكتل الجليد . وانتهت تلك الغوغاء الهائلة إلى إدراك ان الروس لن يقتلوا عشرين ألف رجل عُزّل خدرين خبلين لا يدافعون عن ذاتهم وانتظر كلٌّ مصيره في استسلام مريع . عند ذاك بقي الماجور ومقذّفه

والجنرال الهرم وزوجته وحيدين على بعد خطوات من المكان الذي كان منصوباً فيه الجسر . كانوا ، هم الأربعة ، وقوفاً هناك ، جامدي العين ، صامتين ، يحيط بهم كوم من أموات . وكان الى جانبهم بعض الجنود السليمي البدن وبعض الضباط الذين ردّ اليهم الظَرف كامل طاقتهم . كان ذلك الرهط يعدّ نحواً من خمسين فرداً . وأبصر الماجور على مسافة مائتي قدم بقايا الجسر المصنوع للعربات الذي كان انهار قبل يومين فصرخ :

لنصنع طوفاً .

ولم يكد ينطق تينك الكلمتين حتى بادر الرهط بتمامه الى ذلك الحطام . وراح فريق يجمع كلاليبه حديدية ويبحث عن ألواح خشبية وعن حبال ، وعموماً عن كل المواد الضرورية لإنشاء طوف . وشكّل قرابة عشرين من الجنود والضباط المسلّحين بقيادة الماجور مفرزة حراسة لحماية العاملين من الهجمات اليائسة التي ربّما تقوم بها الغوغاء اذا حزرت غايتهم . والشعور بالحرّية الذي يحمس المساجين ويلهمهم فعل المعجزات لا يمكن ان يقارن بالشعور المحرّك اولئك الفرنسيين المساكين في تلك الآونة .

وكان المدافعون يستحثون العاملين بصيحة : هاهم الروس ، هاهم الروس .

وكانت الأخشاب تقعقع والصفيحة تزداد عرضاً وارتفاعاً وعمقاً . كان عمداء وجنود وعقداء ينوؤون بالحدائد والعجلات والحبال والألواح : كانت صورة حقيقية لبناء فلك نوح . كانت الكونتيسّة الشابّة الجالسة بجانب زوجها تتأمل ذلك المشهد في أسف على عدم

استطاعتها الإسهام بشيء في ذلك العمل . غير انها كانت تساعد في صنع عقد لتقوية الأربطة . وأخيراً كمل الطوف فألقاه اربعون رجلاً في مياه النهر بينما كان عشرة جنود يمسكون الحبال التي سترسيه عند الضفة . وما ان رأى البناة مركبهم عائماً على البيريزينا حتى قفزوا اليه من اعلى الشطّ في أنانية شنيعة . كان الماجور خوفاً من حدّة الهجمة الفورية ، يمسك بيد ستيفاني والجنرال لكنه انتفض عندما رأى المركب غاصاً بالناس والرجال مزدحمين فوقه ازدحام مشاهدين في صالة مسرح وصرخ فيهم :

أيها الوحوش ! أني أنا الذي أوحيت اليكم بفكرة صنع الطوف . إني منقذكم وتأبون عليّ مكاناً فيه .

وكان الجواب همهمة مبهمة كان الرجال المتخذين مكانهم عند طرف الطوف والحاملين أعواداً سندوها الى الكنف يدفعون بعنف القاطرة الخشبية لسوقها نحو الضفة الاخرى وجعلها تمخر عبر الجُمُدِ والجثث .

وصاح المقذّف : عليكم اللعنة . سألقي بكم في الماء إذا لم تفسحوا للماجور ورفيقيه . ورفع سيفه وحال دون الانطلاق وعمد الى رصّ الصفوف على الرغم من صرخات مريعة من الركاب . أكاد أسقط ، إني اسقط ، لننطلق ، الى الأمام . . .

كان الماجور يرنو بطرف جامد الى محبوبته التي شخصت بنظرها الى السماء بفعل عاطفة تسليمية سامية . وقالت .

سأموت معك .

كان مايدعو الى الضحك في وضع ركّاب الطوف . فمع انهم كانوا يصدرون زمجرات فظيعة لم يجسر أحد منهم على مقاومة المقذّف. فقد كانوا مزدحمين الى حدّ انه كان يكفي دفع فرد منهم فقط لينقلب المركب بالجميع . وفي تلك المخاطرة حاول ضابط التخلّص من الجندي الذي لمح حركة الضابط العدائية فأمسك به والقاه في الماء قائلاً له : آه آه ، أيها الغدّار . تريد ان تشرب ، إشرب إذن .

وصاح : ها قد فرغ مكانان ، هيّا ياماجور ألْقِ الينا بشابّتك وتعال دع هذا القميء الذي سيَنْفق غداً .

وعلا صوت مؤلّف من مائة صوت : أسرع

واردف المقذّف : هيّا ياماجور ، إنهم يحتجّون وإنهم على حقّ

وتخلّص الكونت دوفانديير من أرديته وبدا منتصباً في بزّته كجنرال .

فقال فيليب : لننقذ الكونت

وشدّت سيتفاني على يد صديقها وارتمت على صدره وضمّته في عناق أليم وقالت : وداعاً .

لقد فهما بعضاً . واسترجع الكونت دوفانديير قواه ورباطة جأشه فقفز الى المركب حيث تبعته سيتفاني بعد ان اودعت فيليب نظرة أخيرة .

وصاح المقذّف : ياماجور . أتريد مكاني . إني لا أبالي بالحياة . ليس لي زوجة ولا ولد ولا أمّ

فصرخ الماجور وهو يشير الى الكونت وزوجته : إني أُوكِلُك بهما .

قال : كن مطمئناً سأعتني بهما عنايتي بعيني .

ودُفع الطوف نحو الشطّ المقابل الذي وقف عليه فيليب صامداً بعنف كان من الشدّة بحيث ان اصطدامه بالبرّ زعزع كل ما يحمل وسقط الكونت الذي كان عند الطرف في النهر وعاجلته في ذات اللحظة قطعة جليد مسنونة قصّت رأسه ورمت به بعيداً كما قنبلة . وصرخ المقذّف : هيه ياماجور .

وصرخت امرأة : وداعاً .

وهوى فيليب دوسوسي وقد صرعه الهول وأجهده القرّ والأسف والعناء .

واضاف الطبيب بعد هنيهة صمت : كانت ابنة أختي المسكينة قد جُنّت . واردف وهو يمسك يد السيد دالبون : آه ياسيدي ، كم جارت الحياة على تلك الفتيّة البالغة الصبا البالغة الرقّة . فبعد ان افترقت ، بفعل قدر غشوم ، عن مقذّف الحرس الامبراطوري ذاك المدعّو « فلوريو » ظلّت طيلة عامين مُساقة خلف الجيش يتناوبها كثرة من اللئام . كانت ، على ما قيل لي ، تسير حافية ، رديئة الثياب وتبقى شهوراً طوالاً دون عناية ، دون طعام ، محتجزة تارة في بعض المشافي منبوذة تارة كحيوان . الله وحده يعلم كم من المَحِن خرجت منها هذه البائسة سليمة . كانت في بُليدة في المانيا محبوسة مع مجانين بينما كان أقاربها الذين حسبوها ميّتة يتقاسمون هنا تركتها . وفي عام ١٨١٦ تعرّفها المقذّف فلوريو في خان في ستراسبورغ كانت وصلت إليه بعد ان فرّت من سجنها . وروى بعض الفلاّحين للمقذّف ان الكونتيسّة

عاشت شهراً بأكمله في غابة وأنهم طاردوها ليقبضوا عليها دون ان ينجحوا في ذلك . كنت حينذاك على مسافة بضعة أميال من ستراسبورغ وإذ سمعت حديثاً عن فتاة متوحِّشه رغبت في التحقق من الأمور العجيبة التي تغذي حكايات سخيفة . ماذا صارت حالي عندما تعرّفتُ الكونتيسة ؟ أخبرني فلوريو بكل ما يعرفه عن هذه الواقعة المؤسية . واصطحبت ذلك المسكين مع ابنة أختي الى اقليم « اوفيرني » حيث فجعت بفقده كان له بعض التأثير على مدام دوفانديير . وهو وحده الذي استطاع إقناعها بارتداء ثياب وكلمة « وداعاً » التي تشكّل عندها اللغة كلها ، كانت نادراً ما تنطق بها قديماً . وسعى فلوريو الى ان يوقظ فيها بعض المفاهيم غير أنه اخفق ولم يُوفّق سوى الى جعلها تنطق بهذه الكلمة الكئيبة مراراً أكثر . كان المقذِّف يُحسن تسليتها وإشغالها وهو يلاعبها . وكنت آمل بواسطته أن . . لكن . . . .

وسكت خال ستيفاني لهنيهة . وعاد يقول .

هنا التقت مخلوقةً اخرى بدت متفاهمة معها . انها فلاّحة بلهاء أحبّت على الرغم من غبائها ودمامتها عامل بناء . ورغب عامل البناء ذاك في تزوّجها لأنها تملك بضع رقع من الأرض . وظلّت جنفييف المسكينة طيلة عام أسعد مخلوقة وجُدت في الدنيا كانت تتزيّن وتذهب أيام الأحد لترقص مع « دالّو » . كانت تفهم الحبّ . كان في قلبها وفي ذهنها مكان لعاطفة . بيد أن دالّو راجع فكره . لقي فتاة سليمة العقل وتملك قطعتي أرض زيادة عن ما تملك جنفييف . وتخلّى دالّو من ثمّ عن جنفييف . وفقدت هذه المخلوقة البائسة الادراك الزهيد الذي نمّاه فيها الحبّ ولم تعد تصلح الا لرعاية الأبقار ولجزّ الأعشاب . ان

ابنة اختي وهذه الفتاة التعيسة مرتبطتان ان جاز التعبير برابطة قَدَرهما المشترك غير المرئيّة . وبالشعور المسبّب جنونهما . وأضاف خال ستيفاني يقود المركيز دالبون الى النافذة : هاك ، انظر .

وأبصر القاضي بالفعل الكونتيسّة الشابّة جالسة على الأرض بين ساقي جنفييف و الفلاحة المتسلّحة بمشط هائل الحجم من عظم منصرفة كلّياً الى تسريح الخصلات الطويلة السوداء من شعر ستيفاني المستسلمة لها مع إطلاق صرخات خافتة تفضح نبراتها إلتذاذاً محسوساً غريزيّاً به . وارتعش السيد دالبون وهو يرى عفوية الاستكانة والاسترخاء الحيواني التامّ لدى الكونتيسة على الافتقاد التامّ ليقظة الروح . وهتف . — فيليب فيليب . ان المصائب القديمة لا تُعدُّ بشيء قياساً الى هذه . وسأل ألا أمل أمل البتّة إذن ؟

ورفع الطبيب الشيخ بصره الى السماء .

وقال السيد دالبون وهو يشدّ على يد الشيخ : الوداع ياسيدي . ان صديقي ينتظرني ولن تلبث ان تراه

وصاح سوسي بعد سماعه أولى كلمات المركيز دالبون : إذن إنها حقّاً هي . آه كنت لا أزال في شكّ . وأسقط دمعات من عينيه السوداوين اللتين كان قاسياً تعبيرهما المعتاد .

وأجاب القاضي : نعم انها الكونتيسّة دوفانديير .

ونهض الكولونيل فجأة وسارع الى ارتداء ملابسه .

فقال القاضي في دهشة : ماذا تفعل يافيليب . هل جُنِنت ؟

ورد الكولونيل ببساطة : اني لم أعد معتلاً . فهذا النبأ سكّن كل أوجاعي . وهل من داء يمكن ان يُمضّني حينأفكّر بستيفاني ؟ . اني ذاهب الى دير السمحاء لأراها لأكلّمهّا لأشفيها . انها حرّة . إذن ستبسم لنا السعادة أو لا وجود العناية سماوية . هل تحسب انه يمكن لهذه المرأة المسكينة ان تسمعني ولا تسترجع عقلها .

فقال القاضي في أسى ، وقد لحظ أمل صديقه المتأجّج ، محاولاً أن يُدخل الى نفسه شكوكاً مفيدة : لقد شاهدتك قبلاً ولم تتعرّفك

واهتزّ الكولونيل لكنه أخذ يبتسم مبدياً امارة خفيفة من عدم التصديق . ولم يجرؤ أحد على معارضة قصد الكولونيل . ولم تنقَضِ الإساعات حتى استقر في الدير القديم بجانب الطبيب والكونتيسّة دوفانديير . وسأل حين وصوله .

– أين هي ؟

وردّ خال ستيفاني : صَهْ . إنها نائمة . أنظر . هاهي .

ورأى فيليب المجنونة التعسة جاثمة في الشمس على دكّة كان رأسها محمّياً من حرارة الهواء بغابة من شعر مبعثر على وجهها . وكان ذراعاها متهدلتين برشاقة حتى الأرض وكان جسمها مضطجعاً بأناقة كجسم ظبية . وكان قدماها مطويتين تحتها دون جهد . وكان لبشرتها بياض الخزف ذاك الذي يجعلنا نُعجب بسحنة الأطفال الشفّافة . وكان صدرها يعلو في فواصل منتظمة . وكانت جنفييف ، الساكنة بقربها ، تمسك بيدها أملوداً. صعدت ستيفاني دون شك لقطفه من أعلى قمة شجرة حور . وكانت البلهاء تهزّ بلطف ذلك الغصن المورق فوق رفيقتها الراقدة لطرد

الذباب وتطرية الجوّ . ونظرت الفلاّحة الى السيّد « فانْجا » والى الكولونيل ثم ، كحيوان تعرّف صاحبه ، ادارت رأسها ببطء نحو الكونتيسّة وتابعت العناية بها دون إبداء أية علامة استغراب أو فهم كان الجوّ مُحرقاً وكانت الدكّة الحجرية تكاد تقدح وكان المرج يطلق نحو السماء تلك الأبخرة المتلاعبة التي تتطاير وتتلهب فوق الأعشاب كغبار من ذهب . لكن كانت جنفييف تبدو غير شاعرة بذلك الحرّ المُنهِك . وشدّ الكولونيل بعنف يدي الطبيب بين يديه . وطفرت من عيني العسكري دموع سالت على خدّيه الرجوليين وسقطت على العشب عند قدمي ستيفاني .

فقال الخال : أيها السيد . منذ عامين وقلبي يتحطّم كلّ يوم . وستغدو مثلي في القريب . فاذا لم تبك لن يعني ذلك انك سيخفّ شعورك بالألم .

قال الكولونيل الذي كانت تفيض عيناه بذات القدر من الشكر والغيرة . انك اعتنيت بها .

فهم ذانك الرجلان بعضاً ومن جديد شدّا بقوّة على يدي بعضهما وظلاّ ساكنين وهما يتأملان الهدوء الرائع الذي كان يسبغه السُبات على تلك المخلوقة الحلوة . وكانت ستيفاني بين الحين والحين تطلق زفرة وكانت تلك الزفرة الحاملة كل مظاهر الإحساس تُرعش الكولونيل المسكين فرحاً .

فقال له السيد فريجا بصوت خافت : للأسف ، لا تنخدع أيها السيّد . انك تراها في هذه اللحظة بكامل عقلها .

ان الذين ظلوا في التذاذ طيلة ساعات بتمامها منصرفين الى مشاهدة نوم شخص محبوب بحنان ستبسم لهم عيناه عند الصحو يدركون ولا ريب الشعور البهيج والفظيع الذي خامر نفس الكولونيل . كان ذلك السبات في نظره وهماً وستكون اليقظة منه موتاً بل الأشنع من كل الميتات وفجأة بادر جدي في وثبات ثلاث نحو الدكّة وأدنى خطمه من ستيفاني التي انتبهت على ذلك الاشتمام وقامت بخفّة على قدميها دون ان تخيف تلك الحركة الحيوان المراح . بيد أنها عندما ابصرت فيليب فرّت يتبعها رفيقها الرباعي الأرجل الى سياج من بيلسان ثم اطلقت صرخة الطائر المجفّل الخفيفة تلك التي سبق للكولونيل ان سمعها قرب السور حيث ظهرت الكونتيسّة للسيد دالبون للمرّة الاولى . وأخيراً تسلّقت شجرة سيتيس واختبأت في الطرّة الخضراء من تلك الشجرة وراحت ترنو الى «الغرّيب» بتدقيق اشدّ من جميع العنادل فضولاً في الغابة . وقالت : وداعاً ، وداعاً وداعاً ، دون ان تبث الروح أي نبرة احساس لتلك الكلمة .

كان ذلك انعدام شعور الطائر وهو يصفر لحنه .

وصرخ الكولونيل في أسى : انها لم تتعرّفني . ستيفاني ، أنا فيليب ، فيلبيك ، فيليب .

وتقدّم العسكري التعس نحو السيتيسة . لكن ، حين غدا على مسافة ثلاث خطوات من الشجرة نظرت الكونتيسّة إليه كما لتتحدّاه على الرغم من ان نوعاً من تعبير فزع بدا في عينها . ثم ، بقفزة واحدة السيتيسة إلى سنطة ، ومنها الى صنوبرة شماليه حيث تنقلّت من غصن الى غصن بخفة عجيبة .

فقال له السيد فونجا : لا تطاردها إذ ستبعث فيها نحوك نفوراً قد يستحيل التغلّب عليه . سأعينك على جعلها تتعرّفك وتألفك . تعال الى هذه الدكّة . إذا صرفت انتباهك عن هذه المجنونة المسكينة لن تلبث ان تراها تقرب منك شيئاً فشيئاً كي تتبينّك .

وعاد الكولونيل يقول وهو يجلس وظهره الى شجرة يظلّل ورقها دكّة ريفية وكرّر القول متحسّراً : هي : أن لا تتعرفني وأن تهرب منّي !

ومال رأسه على صدره . ولزم الطبيب الصمت . وبعد قليل هبطت الكونتيسّة رويداً من عالي صنوبرتها مرفرفة كلهب راقص مستسلمة أحياناً للتموّجات التي تحدثها الريح في الأشجار . وكانت تتوقّف عند كل فرع لمراقبة الغريب . لكنها ، إذ رأته ساكناً ، انتهت الى القفز على العشب وانتصبت واتّجهت نحوه بخطوٍ وئيد عبر المرجه . ولما استندت الى شجرة على مسافة عشر خطوات تقريباً من الدكّة قال السيّد فانجا بصوت خافت للكولونيل : خذْ بلباقة من جيبي اليمنى بضع قطع من السكّر وأرها ايّاها وستأتي واني اتخلّى لك بطيب خاطر عن متعة اعطائها حلوى . فبواسطة السكّر الذي هي مولعة به ستعوّدها على الدنّو منك وعلى تعرّفك .

واجاب فيليب في أسى : حين كانت امرأة لم يكن لديها أي ميل الى الأطعمة المُحلاّة .

وعندما لوّح الكولونيل لستيفاني بقطعة السكّر التي كان يمسكها بين إبهام وسبّابة يده اليمنى اصدرت من جديد صرختها الوحشية .

ووثبت بسرعة نحو فيليب ثم توقّفت يردّها الخوف الغريزي الذي يبعثه فيها . كانت على التوالي ترمق السكّرة ثم تدير رأسها كتلك الكلاب المسكينة التي يخطر عليها أسيادها المس قبل أن يُلفظ أحد أواخر حروف الابجدية التي تُسرد بطيئاً . وفي النهاية انتصرت الشهوة الحيوانية على الخِشية . وتقدّمت ستيفاني من فيليب ومدّت في وجل يدها السمراء الجميلة للقبض على فريستها ولمست أصابع حبيبها والتقطت السكّرة واختفت في دغلة.وأجهزة تلك الواقعة على ما تبقّى من تحمّل الكولونيل الذي انفجر باكياً وفرّ الى الصالة .

فقال له السيد فانجا : أيكون الحبّ إذن أقل جرأة من الصداقة ؟ ان لديّ أملاً ياسيدي البارون . فابنة أختي التعسة كانت في حال اسوأ جداً من هذه التي تراها عليها .

وصاح الكولونيل : وهل هذا ممكن ؟

فردّ الطبيب : كانت تُصرّ على البقاء عارية .

وصدرت عن فيليب بادرة استفظاع وامتقع وجهه . وخمّن الطبيب في ذلك الإمتقاع أعراضاً مزعجة وجاء يجسّ نبضه فوجده فريسة حمّى حادّة . وبقوة الإلحاح توصل إلى إقناعه بالإيواء في السرير وحضّر له جرعة خفيفة من الأفيون كي يهيّىء له نوماً هادئاً .

ومرّت ثمانية أيام تقريباً غالباً ما عانى فيها البارون دوسوسي غموماً مبرِّحة ولذلك ما لبث ان غاض دمعه . ولم تستطع روحه المنهارة ان تألف المنظر الذي يعرضه عليه جنون الكونتيسه لكنه تهادن ، ان جاز التعبير ، مع ذلك الوضع المريع ووجد ملطّفات في عذابه . فاق سمّو

همّته كل حدّ . قسر نفسه على تأنيس ستيفاني بأن عمد الى اختيار ألذّ الحلوى . ولشدّة ماواظب على تزويدها بتلك الأطعمة ، ولمهارة ما تدرّج في تحقيق المكاسب الزهيدة التي عزم على التوصّل اليها في غريزة حبيبته ، تلك المزقة الأخيرة من عقلها ، أمكنه ان يجعلها أكثر « حرّية » مما كانت قطّ . كان الكولونيل ينزل كل صباح الى المرجة . فان لم يقدر بعد ان يفتش طويلاً عن الكونتيسّة ، على ان يحزر فوق اية شجرة تترجّح برخاوة ، أو في أي ركن لبدت لتلاعب عصفوراً، أو على أي سطح صعدت ، كان يصفر لحن « ذاهباً الى سورية»(١) البالغ الشهرة الذي يرتبط به تذكار واقعة من مغازلاتهما . وكانت ستيفاني تبادر على الفور في خفّة رشأ . كانت قد ألِفت رؤية الكولونيل بحيث لم يعد يخيفها . ولم تلبث أن اعتادت الجلوس في حجره ولفّه بذراعها الرقيقة الرشيقة . وفي ذلك الوضع ، الذي شدّ ما يعزّه المحبّون كان فيليب يعطي الكونتيسّة النهمة بتمّهل بعض قطع الحلوى وبعد ان تكون التهمتها جميعاً كان غالباً ما يحدث ان تفتش ستيفاني جيوب صديقها بحركات تشبه في سرعتها العفوية حركات القرود . وعندما تتأكّد تماماً من عدم تبقّي شيء كانت تنظر إلى فيليب بعين صافية ليس فيها فكر ولا شكر . وتأخذ حينذاك في ملاعبته ، تحاول ان تخلع حذاءه لترى قدمه ، تمزّق قفازيه ، تضع على رأسها قبعته . لكنها كانت تدعه يمرّر يديه في شعرها وتسمح لهان يضمّها بين ذراعيه وتتلقى دون التذاذ قبلات مضطرمة . وأخيراً كانت ترنو اليه في

---

(١) نشيدأقرب الى الأغنية شاع أيام الحروب الصليبية يودع به الجندي المغادر حبيبته . Partant Povrla Syric

صمت حين يذرف دموعاً . كانت تفهم جيّداً صفرة « ذاهباً الى سورية » بيد انه لم يستطع التوفّق الى جعلها تلفظ اسمها : سيتفاني .
كان يقوّي عزم فيليب في سعيه القطيع أمل لم يتخلّ عنه أبداً . كان العاشق المسكين ، اذا شاهد الكونتيسة في صبيحة خريفية جميلة جالسة بسكون على دكّة تحت شجرة حور مصفـرّة الأوراق ، يتمـدّد عند قدميها ويحدّق في عينيها طيلة ما كانت تشاء أن تُرمق آملاً أن يعود الومض الصادر عنهما ومضاً مُدرِكاً . وكان أحيانا ينخدع فيحسب انه لمح تلك البرُوق الصافية الجامدة وقد تحركت من جديد رخيّة حيّة ويصرخ : ستيفاني ، ستيفاني ، انك تسمعينني ، انك ترينني . لكنها كانت تستمع الى رنين ذلك الصوت كأيّما خشخشة ، كهدير الريح التي تهز الأشجار ، كخوار البقرة التي كانت تمتطيها . وكان الكولونيل يعصر كفّيه من الأسف ، من أسف دائم التجدّد . وما كان من شأن الزمن وتلك المحاولات العقيمة غير أن تضاعف ألمه . وذات مساء ، في جوّ هادىء وسط صمت وسكينه ذلك الملجأ الريفي أبصر الطبيب البارون من بعيد وهو منصرف الى حشو طبنجة . وأدرك الطبيب الشيخ أن فيليب فقد كل أمل وشعر بدمه جميعاً يندفق الى قلبه وإذا كان قادم الدوار الذي اعتراه فلأنه يفضل رؤية ابنة أخته حيّة ومجنونة على رؤيتها ميّتة . فهرع اليه وقال :

ماذا تفعل ؟

وأجاب الكولونيل وهو يشير الى طبنجة محشوة فوق الدكّة : تلك لي

وأضاف وهو يتابع دفع حشوة البارود في السلاح الذي بيده : وهذه لها .

وكانت الكونتيسّة متمددة على الأرض تلهو بالرصاصات

وردّ الطبيب برباطة جأش وقد أخفى ذعره : أتَعلْم أنها قالت في أثناء نوعها الليلة الماضية : فيليب .

وصاح البارون : إنها ذكرت اسمي .

وأسقط طبنجته التي التقطتها استيفاني ، لكنه انتزعها من يديها وتناول الطبنجة التي على الدكّة وتولّى هارباً .

وهتف الطبيب وقد سعد بالنجاح الذي نالته خدعته : ياللصغيرة المسكينة . وضمّ المجنونة الى صدره وقال مردفاً .

كان سيقتلك ، هذا الأناني . إنه يريد إماتتك لأنه يتألّم . انه لا يعرف ان يحبّك لذاتك يابنتي . سنسامحه ، اليس كذلك . انه فاقد الصواب وأنت لست سوى مجنونة . لابأس . ان للّه وحده ان يدعوك الى جواره . نحن نظنّك بائسة لأنك لا تشاركيننا مكابداتنا . يالنا من أغبياء . وأضاف وهو يُجلسها على ركبتيه : بيد انك سعيدة لا يضايقك شيء . أنت تعيشين مثل الطائر ، مثل الأروّية .

وانقضّت على شحرور صغير كان يحجل وأمسكته مُطلقة صيحة ناعمة من حبور و خنقته ورنت اليه ميتاً وتركته عند كعب شجرة غير مبالية به .

وفي اليوم التالي ، ما أن وضح النهار حتى نزل الكولونيل الى الحديقة وبحث عن سيتفاني . كان يوقن بالسعادة . وإذ لم يعثر عليها أصدر صفرته . وحين حضرت حبيبته تأبّط ذراعها ومشيا معاً للمرة الأولى واتّجها الى عريشة من اشجار زاوية كانت تتساقط أوراقها بفعل نسيم الصباح . وجلس الكولونيل وارتمت ستيفاني من ذاتها في حجره ،

فاهتز فيليب سروراً . وقال لها وهو يقبّل يديها بحرارة : ياحبيبتي ، أنا فيليب .

وحدّقت فيه بفضول .

وأضاف وهو يضمّها : تعالي . الا تشعرين بخفق قلبي ؟ انه لم يخفق الاّ لك . أنا لا أزال أحبّك . فيليب لم يمت . انه هنا . إنك في حجره . أنت ستيفانيتي وأنا فيليبك .

قالت : وداعاً ، وداعاً .

وارتعش الكولونيل ، إذ خيّل له ان احتدامه انتقل الى حبيبته . وأن صرخته المؤسية التي شحذها الأمل ، تلك المجاهدة الأخيرة لحبّ أبدي ، لوله جارف ، ايقظت إدراك صديقته . وهتف : آه ياستفاني سنكون سعيدين .

وأصدرت صيحة رضا ولمعت عيناها بما يشبه بارقة فطنة . وعاد يهتف .

لقد تعرفتني ! ستيفاني !

وأحس الكولونيل بقلبه يُفعَم ونديت جفونه لكنه شاهد ستفاني فجأة تريه بعض السكّر الذي عثرت عليه وهي تفتش جيوبه بينما كان يتكلم . فقد توهّم إذن تفكيراً إنسانياً في درجة العقل المفترضة في فكر القرد . وأغمي على فيليب. ووجد السيد فانجا الكونتيسّة جالسة على جسم الكولونيل . كانت تقضم سُكّرتها معربة عن التذاذها بغنّات كانت ستثير الإعجاب لو انها ، وعقلها فيها ، شاءت على سبيل المزاح محاكاة قطّتها أو ببغائها .

وزفر فيليب اذ استعاد وعيه : آه ياصديقي . اني أموت في كل يوم ؛ في كل لحظة إني أحبّ بأكثر مما يصحّ . كنت سأحتمل كل شيء لو أنها ، في جنونها ، احتفظت بشيء ما من الطبيعة الأنثوية . لكن ان أراها وحشيّة على الدوام ؛ بل وعديمة الاحتشام أن أراها

وقاطعه الطبيب بحدّة : كنت تريد إذن جنوناً مسرحياً . واخلاصك في الحبّ كان إذن مُخضعاً لأفكار مسبقّة ؟ عجباً أيها السيد . لقد حرمت نفسي لأجلك من المتعة المُشجية أن أطعم ابنة اختي ، تركت لك بهجةملاعبتها. لم أحتفظ لنفسي الاّ بالمهّمات الأبهظ.وفيما تكون أنت نائماً أكون أنا ساهراً عليها . إني . . . إمْض أيها السيّد ، تخَلَّ عنها . غادر هذا المعتزل الكئيب . اني أعرف كيف اعايش هذه المخلوقة الصغيرة العزيزة . اني أفهم جنونها ، ارقب حركاتها . اني مطّلع على سريرتها . سيأتي يوم تشكرني فيه على تصرفي معكما .

وغادر الكولونيل دير « السمحاء » فلم يرجع اليه سوى مّرة واحدة . وقد ذعر الطبيب من الأثر الذي احدثه في ضيفه . كان قد بدأ يحبّه قدر محبته ابنة أخته . واذا كان من الحبيبين من يستحق الشفقة فهو فيليب دون شك : أليس هو وحده الذي يحمل ثقل حزن مريع ؟ وأرسل الطبيب يستخبر عن الكولونيل . وعلم ان المسكين لجأ الى مزرعة يملكها قرب « سان – جيرمان » . كان الكولونيل ، اعتماداً على حلم ، قد رتّب خطّة لإعادة الكونتيسّة الى العقل . فعلى غير معرفة من الطبيب كان يقضي ما تبقّى من الخريف في التحضير لذلك المشروع الهائل. كان نهر صغير يجري في مرجته حيث كان يُغرق في

الشتاء منقعاً كبيراً يكاد يشبه المنقع الممتّد على جانب الضفة اليمنى للبيريزينا . وكانت قرية « ساتو » الواقعة على تلّة ، تكمل تأطير المسرح الرهيب ذاك مثلما كانت ستودزيانكا تشرف على سهل البيريزينا وجمع الكولونيل عمّالاً لحفر قناة تشبه النهر المفترس الذي ضاعت فيه كنوز فرنسا ، نابليون وجيوشه . ونجح فيليب بعونٍ من ذاكرته ، في ان ينقل الى مرجته صورة الضفة التي أمر الجنرال ايبليه ان تقام عليها الجسور . غرز حمّالات واحرقها بحيث تمثّل الألواح السوداء نصف المتفحمة التي اكّدت للمتخلفين ان طريق فرنسا أصبحت مغلقة أمامهم من على جانبي الشاطىء . واستحضر الكولونيل حطاماً شبيهاً للذي استعمله رفقاؤه في المحنة لبناء مركبهم . وخرّب مرجته لإتمام الإيهام الذي كان يقيم عليه أمله الأخير . وأوصى على بزّات وملابس مهلهلة كي يلبسها عدة مئات من الفلاحين . وأنشأ أكواخاً ومخيمات وبطاريات اشعل النار فيها . وجملة القول انه لم ينس شيئاً مما قد يحاكي أفظع جميع المشاهد وتوصّل الى غايته . وحول الأيام الاولى من شهر كانون الأول ، حين كسا الثلج الأرض بغطاء كثيف أبيض ، تعرّف منظر البيريزينا . كانت روسيا المزيّفة تلك على قدر عظيم من صدق الشبه المريع حتى ان العديد من إخوانه في السلاح وجدوا فيها مسرح شقاءاتهم الماضية . وحافظ السيد دوسوسي على سرّية تلك المحاكاة المؤسية التي تحدثت عنها مجتمعات باريسية كثيرة في ذلك الحين كمشروع جنوني .

وفي مطلع كانون الثاني ١٨٢٠ صعد الكولونيل عربة شبيهة لتلك التي حملت السيد والسيدة دوفانديير من موسكو الى ستودزيانكا وتوجّه

الى غابة « إيل — آدم » . كان يجرّ العربة جوادان يماثلان تقريباً ذينك اللذين ذهب لإحضارهما ، مخاطراً بحياته ، من المعسكر الروسي . كان يرتدي الثياب الملطخة الغريبة والعمرة والأسلحة التي كانت عليه يوم ٢٩ تشرين الثاني عام ١٨١٢ كما انه كان أطلق لحيته وشعره وأهمل غسل وجهه كيلا ينقص شيء من صدق تلك المسرحية الرهيبة .

وصاح السيّد فانجا إذ شاهد الكولونيل يهبط من العربة : لقد حزرت قصدك . واذا كنت تريد ان تنجح خطّتك لا تظهر في هذه العدّة . فهذا المساء سأجعل ابنة اختي تتناول شيئاًمن الأفيون.وفي اثناءنومها سنُلبسها كما كانت لابسة في ستودزيانكا ونضعها في عربتك . وسأتبعكما في عربة مُغلقة .

وعند الساعة الثانية صباحاً حُملت الكونتيسة الى العربة ووضعت فوق وسادات ولُفّت بغطاء خشن . وكان بعض الفلاحين ينيرون ذلك الاختطاف الغريب . وفجأة اخترقت سكون الليل صرخة حادّة . والتفت فيليب والطبيب فأبصرا جنفييف تخرج نصف عارية من غرفة القبو التي تنام فيها . وصاحت باكيةً بدموع سخيّة : وداعاً ، وداعاً ، انها النهاية ، وداعاً .

فقال لها السيد فانجا : ماهذا ياجنفييف ؟ ماذا بك ؟

وهزّت جنفييف رأسها في حركة يأس ورفعت ذراعيها الى السماء ونظرت العربة وأصدرت همهمة طويلة وأبدت علائم واضحة من هلع عميق وعادت الى غرفتها صامتة .

وهتف الكولونيل : إنها لبشارة طيبّة . فهذه الفتاة آسفة على ان لم تعدْ لها رفيقة . إنها « رأت » ربّما ان ستيفاني ستستردّ قواها العقلية

فقال السيد فانجا الذي بدأ متأثراً من تلك الواقعة الطارئة : عسى يشاء الله ذلك .

فمنذ ان انصرف الى معالجة الجنون كان صادف أمثلة جمّة على القدرة التنبؤية وعلى موهبة الاستبصار اللتين أعطى بعض المجانين براهين عليهما والموجودتين ، حسب مسافرين كثر ، عند القبائل المتوحّشة .

وطبقاً لما قررّه الكولونيل اجتازت ستيفاني سهل البيريزينا الوهمي عند الساعة التاسعة صباحاً . وأيقظها دويّ علبة انفجرت على مسافة مائة خطوة من مكان المشهد . كان ذلك علامةً . وأطلق ألف فلاح صرخة هائلة شبيهة بجلبة اليأس التي أخافت الروس عندما رأى عشرون ألف متخلّف أنفسهم مسلّمين نتيجة قصورهم للموت أو للعبودية . وإثر تلك الصرخة ، إثر هزيم المدفع هذا ، وثبت الكونتيسة الى خارج العربة وركضت في جزع شديد على البساط الثلجي وأبصرت المخيمات المحروقة والطوف المشؤوم وهو يلقي في بيريزينا جليدي . وكان الماجور فيليب هناك يلوّح بسيفه فوق الجمهرة . واصدرت الكونتيسّة دوفانديير صرخة جمدت لها الأفئدة ووقفت أمام الكولونيل المرتعد . وانطوت على ذاتها وسرّحت طرفها بدايةً في ذلك المشهد الغريب . وخلال لحظة في مثل سرعة البرق ظهر في عينيها الصحو الخالي من الفطنة الذي نعجب به في عيون الطيور اللامعة . ثم مسحت بيدها على جبينها في التعبير اليقظ لشخص يُفكّر وراحت تتأمّل ذلك التذكار الحيّ ، تلك الحياة الماضية الماثلة مجدّداً أمامها والتفتت بسرعة الى فيليب و « أبصرته » .

كان صمت رهيب يسود الجمع . وكان الكولونيل يلهث ولا يجسر على التكلّم . وكان الطبيب يبكي . وتورّد وجه ستيفاني الجميل قليلاً، ثم من طبقة الى طبقة استرجع رونق صبيّة متلألئاً بالنضارة . صارت بديعة الأحمرار . وانتشر تأثير الحياة والسعادة اللتين ينعشهما وعي وقّاد من شخص الى آخر كالحريق . وانتقل ارتعاش تشنّجي من الاقدام الى القلوب . ثم كان لتلك الظاهرات التي تبدّت واضحة في تلك الآونة ما يشبه الرابطة المشتركة حين لمعت عينا ستيفاني بشعاع سماوي وتوهّجتا بألق محتدم . انهاتحيا . إنها تفكّر . وارتجفت ، عن رعب ربّما . ان الله حلّ مرّة اخرى عقدة ذلك اللسان الأبكم ونفخ روحه من جديد في تلك النفس الهامدة . وجاءت الهمّة البشرية بتياراتها الكهربائية فأنعشت ذلك الجسد الذي غابت عنه تلك المدّة الطويلة .

وهتف الكولونيل : ستيفاني .

فقالت الكونتيسّة المسكينة : اوه ، هذا فيليب .

وارتمت بين الذراعين الراعشتين اللتين فتحهما لها الكولونيل ، وكان من اضطرام عناق الحبيبين ما بعث الهلع في نفوس الناظرين . وانفجرت ستيفاني تبكي . وفجأة جفّت دموعها وتيبّست كما لو مسّتها صاعقة وقالت بجرس صوت ضعيف .

وداعاً يافيليب . أحبّك . وداعاً .

وصرخ الكولونيل وهو يرخي ذراعيه : اوه ، انها ماتت .

وتلقّى الطبيب جسم ابنة اخته الفاقد الحركة وقبّلها كما كان

سيفعل شاب وحملها وجلس بها فوق كوم خشب . ونظر الى الكونتيسة واضعاً على قلبها يداً واهنة مختلجة . كان القلب قد توقّف عن الخفقان.

وقال وهو يُنقّل الطرف من الكولونيل المتسمّر في مكانه الى وجه ستيفاني الذي اسبغ عليه الموت ذلك الجمال البهيّ ، الأشبه بهالة لا تلبث ان تزول وقال : نعم لقد ماتت .

وصاح الكولونيل . آه . وهذه البسمة ، أنظر هذه البسمة . هل هذا ممكن .

وأجاب السيد فونجا : لقد غدت هامدة .

وسار السيد دوسوسي بضع خطوات ليخلص على مضض من ذلك المشهد ، لكنه توقّف وصفر اللحن الذي كانت تسمعه المجنونة وإذ لم ير حبيبته تبادر اليه ابتعد بخطوٍ مترنّح كرجل ثمل متابعاً صفيره لكن غير ملتفت الى خلف .

كان الجنرال فيليب دوسوسي معتبراً في المجتمع رجلاً بالغ اللطف ، وبالأخصّ بالغ البهجة . ومنذ أيام هنّأته سيدة على فكاهته ودماثته فقال لها :

آه ياسيدتي اني ادفع ثمن دعاباتي غالياً جدّاً في المساء حين أكون وحدي .

– وهل يُصادف أن تكون يوماً وحدك ؟

وردّ مبتسماً : كلاّ

لو أمكن ملاحظاً متبصّراً للطبيعة الانسانية رؤية تعبير الكونت دوسوسي في تلك اللحظة لكان ارتعد ربّما .

وعادت تلك السيدة التي كانت لها عدّة بنات في مدرسة داخلية تسأله : لماذا لا تتزوّج ؟ إنك غنّي رفيع المقام عريق النبالة تملك مواهب وأمامك مستقبل واعد ، وكل شيء يبتسم لك .

وأجاب : نعم . لكن هناك بسمة تقتلني .

وفي اليوم التالي علمت السيدة في دهش ان السيد دوسوسي أطلق الرصاص على رأسه خلال الليل . وتحدث المجتمع الرفيع بصيغ متباينة حول تلك الواقعة الغريبة وراح كلّ يبحث عن سببها . وعزا كل معلّل، حسب تقديره الخاص إلى القمار ، أو الى الحب ، أو الى الطموح الشطط ، أو الى انحرافات اخلاقية مجهولة تلك الفاجعة ، الفصل الأخير من مأساة بدأت عام ١٨١٢ . رجلان فقط ، قاض و طبيب كانا يعلمان ان السيّد الكونت دوسوسي كان من اؤلئك الرجال الأشدّاء الذين يمنحهم الله القدرة المُشقية على الخروج كل يوم منتصرين من معركة رهيبة يخوضونها ضد غول مجهول . فاذا في لحظة حجب الله عنهم عونه المهيمن ، سقطوا صرعى .

باريس — آذار ١٨٣٠

المنزل الأحمر

دراسة حول المؤلف والقصة

بقلم آن ماري مينينجيه
ترجمة المهندس ميشيل خوري

خصص آلن ، عندما وصل إلى الصفحات الأخيرة من **((مع بلزاك))** فصلاً كاملاً **للنزل الأحمر** ، يضيء فيه بتحليله لتعرض القصة هذا العمل ويعبر به في الوقت ذاته عما يكنه الفيلسوف من إعجاب بها(١) « ففن التأليف فيها مضاعف ان صح التعبير . إنها قصة قصة . فراويها شاب مغرم بابنة الثري الكبير تايلفر ، يستمع أثناء تناول الحلوى ، الى حكاية يحكيها الماني ساذج ، عن جريمة بقي مرتكبها مجهولاً ، وقد أوحت بعض ارتكاسات تايلفر للشاب بأن هذا المصرفي هو القاتل ، وحولت بعض الأسئلة الخادعة شكه يقيناً ، وهذا ما خلق مأساة قاتمة ، ووقفة مع الضمير بالنسبة لمن لا يقل غرامه للملايين عن غرامه للابنة [. . .] .

الواقع أن هذه المأساة ماهي إلا إطار يغلف المأساة الاخرى التي رواها الالماني الطيب ، والتي شغلت بدورها تفكير الشاب . انها جريمة مقصودة ، صممت بتفصيل ، وخطط لها حتى عتبة التنفيذ ، وعند تلك النقطة انتابت المصمم ارتعاشة رعب ، واعتراه الندم ، وتنفس بشعور الرضا لتراجعه وصلى ، ثم راح في نوم عميق .

عند استيقاظه ، وجد أن الجريمة قد نفذت ، من قبل صديق على مايبدو ، لكنه لم يترك أي أثر وكل الدلائل تتهم البريء ، بل انه هو نفسه غير واثق من براءته ، إذ انه لم ينقذ الا باختلاجة لا إرادية . اهي الفضيلة ؟ اهي البراءة ؟. بينما كان يناقش هذه المسألة معنفسه، ومع سجين آخر أحس بشفقة عارمة نحوه ، وهذا السجين هو الراوي

---

(١) مع بلزاك ـ طبعة غاليمار ١٩٣٧ ـ دراسة لآلن (إميل شارتيه) (١٨٦٨ ـ ١٩٥١) فيلسوف واستاذ فرنسي .

الذي كان يجادله بالذات حول حقه الخاص ودفاعه الخاص . لكن التحقيق في الجريمة تم بسرعة ومع متهم لم يعرف كيف يدافع عن نفسه . باختصار استسلم للادانة ولتنفيذ حكم الاعدام .

إذا كانت النوايا تقتل فما اكثر الجرائم ! هذه الفكرة غالباً ماعولجت ، لكن الانفعال هنا في الذروة ، بوجود الألماني الطبيب الذي يروي ماشاهد، وبالرعب الذي تضاعف بوجود القاتل الحقيقي ، وهذا مالم يكن منتظرا بالتأكيد ، ان نظرنا ينتقل من مأساة الى اخرى ، وهذا التأرجح يجدد تأثير المفاجأة وينعشها بتحريكه الرعشة .

هذه القصة تتوافق في الحجم مع القسم العاشر من **ابنة العم بت**، فهي اذا اقصوصة لكن يمكن أن تنافس **الرواق الامامي الكبير** او **دوقة لانجه** بما يستطاع تسميته مناورات القصاص » .

هذا هو الحدث الذي يكشف عنه التحليل ، لكن القارىء ، بعد اطلاعه عليه ، سيزداد اعجابه بفن القص عندما ينتقل الى المغزى ، واهتمام الفيلسوف يبرهن على ذلك ، **والنزل الأحمر** لاتنتمي الا ظاهرياً للروايات البوليسية ، مع حادثة القتل ، والمسار المغلوط ، والخطأ القضائي والاجرامي الذي كشف اخيرا ، والحقيقة أن المؤلف « فلسفي » كما أراده بلزاك منذ تحريره في ١٨٣١ وهو فعلا في موقعه المناسب حيث وضعه في **الملهاة الانسانية** ، ليس بين دراسة طبائع التي جعل فليكس دافن في ١٨٣٤ يؤكد أنها تصف « المجتمع في جميع تأثيراته » وانما بين **الدراسات الفلسفية** التي تكتشف الأسباب منها » ولنؤكد على العبارة الاخيرة .

بالنسبة لموريس باردش فان الأسئلة في النزل الأحمر قد طرحت وتجنبت الاجابة عنها » : « الواقع » أن بلزاك « ليس كاتباً اخلاقياً . لكن أيريد بلزاك أن يكون كاتباً أخلاقياً ؟ إنه لايراوغ أبداً في الأسئلة ، إنما يدفع كل واحد للتفكير في الأسباب المكتشفة فقط .

ربما من أجل أن يكون أكثر وضوحاً ، وبعد تردد يستحق الانتباه ترك هنا ــ وهذا شيء استثنائي في الطور الأخير من طبعة **الملهاة الإنسانية**ـ

قسمين لقصته : **الفكرة والفعل والعدالتان . في الفكرة والفعل** ، تبدو الجريمة كفكرة ارتكبهامانيان ثم جريمة الواقع التي ارتكبها تايلفر . اما دلالة **العدالتين** فتبدو أكثر تعقيداً ، خاصة وقد تعرض هذا العنوان الى تعديلات ، فخلال التقطيعات المتتابعة للقصة يغطي نصوصا مختلفة : في الطبعة الاولى ، إثبات الجريمة والحكم على مانيان ، ثم عقاب تايلفر بعذاب الضمير ، في الطبعة الثانية ، عنون إثبات الجريمة والحكم على مانيان بعنوان : الجريمتين ، بينما اقتصر عنوان **العدالتين** على عقاب تايلفر ، وفي الطبعتين اتخذت النهاية ــ العشاء الذي اقامه القاص ــ عنوانا ، **وعي الضمير** .

في البدء اذا ، بدت العدالتان تلك التي تقع على مانيان ويليها تلك التي تقع على تايلفر : كيف ادينت فكرة الجريمة ، وكيف أدين فعل الجريمة . هذا المعنى دون شك ليس هو ما أراده بلزاك ، وفي الطور الثاني تقتصر **العدالتان** على العقاب الطبيعي والمعنوي للمجرم الحقيقي ، **لكن وعي الضمير** يتضمن حكما معنويا ، إنما هذا العنوان حذف أخيراً وترك بلزاك للعدالتين مهمة بيان نتيجتي الجريمة الحقيقة : على المجرم وعلى المجتمع ، على المجرم لان الندامة وهي **التفكير بجريمته** ستؤدي الى ارتكاس طبيعي له من القوة ما يقتله ، وعلى المجتمع المتمثل بمدعوي الراوي ، والتفكير بالجريمة يحدد لديهم ارتكاسات مزاجية كالحمض الذي لايقرض بطريقة واحدة الاجسام المختلفة ، وفوق ذلك ستكون نتيجته الملموسة الحيلولة دون اتمام زواج .

برهن بلزاك بمنطقية العناوين النهائية كما في استدلالات كل قسم من القصة ، على أنه قد طبق بشكل فعال مبدأ الاسباب المكتشفة في **الدراسات الفلسفية** ومبدؤها العام وهو ، كما نعلم ، مادية التأثيرات الفكرية ، فهو على حق اذا عندما يصرح ، منذ ١٨٣٤ ، بقلم داڤن ، أن في **النزل الأحمر** أكثر من أي مؤلف آخر من **الدراسات الفلسفية** «تصادف الاستنتاجات الاكثر قسوة للمبدأ العام» .

يشير جيلبر سيفو(١) الى أن **النزل الاحمر** ليست حجرا محمولا

---

(١) نتاج بلزاك (النادي الفرنسي للكتاب ١٩٥٢) .

من بناء بلزاكي كبير انما بالعكس ، رغم الشكل الظاهر ، من خيرمرتكزاته للدلالة » . « من خير مرتكزاته » بالتأكيد في زمن تحريرها ، وفي الحيز الابداع البلزاكي .

في زمن التحرير ، لان هذا المؤلف قد كتب في أيار من العام ١٨٣١ الذي رأى وخاصة مع **جلد الكآبة** تصورا شبه حصري للنتاج الفلسفي المتوج في العام التالي **بلويس لامبر** ، ففي هذا النص الاخير ، سيعطي بلزاك الشكل الجلي المكتمل لتصوره عن استقلال الفكر وماديته ، وهو مالم يعبر عنه من قبل بشكل افضل مما في **النزل الاحمر** .

في حيز الابداع ، لان من بين أوائل المؤلفات التي ستشكل فيما بعد **الملهاة الانسانية** تعقد **المنزل الاحمر** بطريقة متميزة ، رابطة بين التصورات الماضية والمستقبلية لدى بلزاك ، باسترجاعها المفهومين الاكثر قوة في مؤلفات شبابه ، والتي ستوجد بشكل أكثر ثباتا في النتاج التالي ؛ وهــذا يعني هنا أهمية المفاهيم والمنابع . كانت جورج صـــاند على حق عندمـــا قالت : « يجب قراءة كل بلزاك » لان كل عمل من أعمال الروائي « هو في الواقع ، صفحة من كتاب كبير ، سيكون ناقصا اذا انتزعت منه هــذه الصفحة الهامة » . لكن دراسة الكتاب الكبير ستكون ناقصة ، اذا لم يؤخذ بالاعتبار نتاج بلزاك السابق **للملهاة الانسانية** ؛ وهكذا في موضوع الجرائم الخفية ، وقبل خطاب فوترين لرستنياك ، وهو قطعة رئيسة في **الأب غوريو** استكشف بلزاك سابقا في **قانون الاشخاص الشرفاء في** ١٨٢٥ ، ومنذ ١٨٢٤ في **آنيت والمجرم** ، عظة للأب دي مونديفر تقترح جدولا مؤثرا للآثام التي تفلت من العدالة مع أنها أساس للعديد من البلايا مثل : الزنا ، والتحريم ، ورشوة أو إغواء القضاة ، والاحتيال على الوصايا أو إتلافها ، والحرمان من الارث . عدد من الجرائم تمثلت بشكل بارز في **غوبيك . والتحريم . وفتنة وتعاسة الموسسات ، واورسول ميروه** ؛ أما في القتل مع دفع بالغيبة ، فقد أجمل بلزاك الموضوع في قصة **استراحة** المرفقة مع نشرة **الكاريكاتور** في تشرين أول ١٨٣٠ ، اذ ينتهز شاب فترة الاستراحة ليذهب ويتخلص من عجوز سيرثه ، ثم يعود ليقول لمن جاوره في الكرسي : « إن الاستراحة طويلة لماذا لم تأت الى الصالة ؟ » بعد تسعة عشر عاما ، ورغم دخل ستين ألف

ليرة سنويا ، والمركز الكبير للقاتل ، وجد أحد الفضوليين ليحرك الشبهات القديمة أثناء حديث في صالون ، وقد انتهى هذا الحديث بشكل خاص بالسؤال : « أين يسكن ؟.. » سؤال شبيه جدا ختم به الاستفتاء الهزلي لمدعوي الراوي في نهاية **النزل الأحمر** في استراحة يستخلص بلزاك : « الواقع ، الا أرى في كل يوم مفلسين ، ومزورين وسارقين يلقون الاحترام ؟ لماذا يتراجع اذاً المجتمع الطيب أمام قاتل ؟ إن السيد باردش يرى أن المنزل الاحمر ليست الا تطويرا لهذا الوضع ، انما في اطار مختلف .

كذلك فان اطار جريمة **النزل الأحمر** مختلف واقل أصالة من المسرح وقد كان لحوالي دزينتين من المسرحيات اطار نزل في الفترة التي تفصل ما بين بدء القرن التاسع عشر وتاريخ تحرير النزل الاحمر ، وهذا الاطار يعتبر تقليديا أيضا بالنسبة لجريمة قتل وفق تقليد قام منذ رواية **جاك القدري** لديدرو وتجدد بتألق في ١٨٢٣ في المشجاة : نزل **السفوح المشمسة** . اضافة الى ذلك فان الحقيقة تؤكد غالبا صحة التخيل : ففي تشرين اول ١٨٣١ مثلا ، اي بعد عدة اشهر من تحرير **النزل الاحمر** ، تفجرت مأساة في نزل پيربيل حيث قتل ملاك غني اسمه جان ـ انطوان انجولرا وسلب منه مبلغ كبير ، وقد اثارت القضية ضجة كبرى : ويبدو أن الاحكام لم تتناول المجرم الحقيقي . وبالاستدلال تظهر القصة الحقيقية كثيرا من النقاط المشتركة مع القصة التي سبق لبلزاك نشرها بفترة وجيزة ، ولم يكن من قبيل الصدف أن يسميها الرأي العام الشعبي : قضية النزل الاحمر .

إما حقيقة الوقائع التي استوحى منها بلزاك فهي تقودنا أولا الى نصيحة صاند : « يجب قراءة كل بلزاك » نهاية مسيرة تبدأ مع **آنيت والمجرم** ، ومروراً **بالنزل الأحمر** ، ان رواية **الأب غوريو** يمكن استخدامها كنقطة انطلاق بفضل المقاربات التي تتيحها . هل سيعرف قارىء الصفحات الكبيرة فقط من **الملهاة البشرية** الذي اطلع فقط على **الأب غوريو** ، ولم يطلع على **النزل الأحمر** ولا على **المراة المهجورة** أن في هذه القصة الاخيرة ينكشف مستقبل وشخصية المراة التي أمكن بواسطتها ادخال راستنياك في مشاهد الحياة الباريسية وهي السيدة دي بوسيان ؟

الا يجهل ان **النزل الأحمر** يمثل حالة زواج ثانية خائبة لفكتورين تايلفر افرزت اعادة غريبة « لمشكلة ضميرية » مثارة « بجريمة مخفية » . في **الأب غوريو** ، يتردد راستنياك فعلا ثم يتخلى عن فكرة الزواج بفيكتورين ، عندما يكتشف أن الحادث الذي سبب موت أخيها وجعل منها الابنة المعترف بها وريثة شرعية وحيدة لتايلفر المصرفي الثري ، هو في الواقع جريمة غير انها بقيت وستبقى مجهولة . والحال يتردد الراوي في النزل الاحمر ، ويتخلى اخيراً عن فكرة الزواج بفيكتورين عندما يكتشف ان الجريمة التي بقيت مجهولة ، هي مصدر ثروة والد هذه الوارثة .

ان الاقتصار على دراسة النصوص يمكن للوهلة الاولى ، أن تحث على ارجاع هذا التكرار لنظام عودة الشخصيات ، لان الوارثة والمصرفي في **النزل الأحمر** تلقيا اسميهما النهائيين بعد **الأب غوريو** ، ففي النصوص المسلسلة والطبعة الاصلية ١٨٣١ و ١٨٣٢ كان اسم تايلفر موريسي ، واسم فيكتورين جوزفين ، لكن الفترة المتحدث عنها في **النزل الأحمر** تالية للحدث المروي في **الأب غوريو** . المكتوبة مع ذلك بعد كتابة **النزل الأحمر** ، كما أن نهاية حكاية السيدة بوسيان قد كتبت في **المرأة المهجورة** قبل بدئها المذكور بعد ذلك في **الأب غوريو** . الا يمكن تفسير هذه الروابط السرية التي تجمع هذه الاعمال حتى التبني اللاحق والنهائي لاسم أصيل بالعودة الى الموارد ؟

من المعروف أن قسماً رئيساً من العقدة في قصة المرأة المهجورة تيسر لبلزاك من واقعة مختلفة أصلية : انتحار الكونت دى بون المموّه بحادث بعد أن انتابه اليأس لقطع علاقته بالكونتيسة دي كاستلان للزواج بآفوا ميشيل لا شك أن القصة قد رويت لبلزاك من قبل دوقة دابرنتس المعاصرة للمأساة التي وقعت في العام ١٧٩٦ ، والحال أن بعض صحف تلك الفترة ربطت « حادث » الكونت دي بون بجريمة احدثت ضجة كبرى : فقد قتل شخص اسمه بتيفال قبل بضعة أيام في فيتري مع خمسة أشخاص من عائلته وخدمه ، وقد لاحظت هذه الصحف أن بتيفال من أقرب أقرباء الكونت دي بون وادعت وفقاً لحبكة الحادثة المقبولة أن الكونت قتل عرضاً وهو يتفحص سلاحاً مخصصاً لتأمين حمايته بعد مقتل قريبه ، وقد أصبحت قضية بتيفال أكثر تميزاً بعد أن لمحت

الشائعات العامة الى اسم مرتكب مجزرة فيتري : وهو الاصغر من الاخوين ميشيل « المصرفيين السيئي السمعة » في شوسيه ــ دانتن ، غير أن ما من أحد وجد صلة ما بين هذين الاخوين وعائلة بيت حمي الكونت دي بون آل ميشيل دي غريو ، وهم صيارفة أيضاً ، ويبدو الا قرابة بالتأكيد بين العائلتين ، لكن الدوقة دابرنتس تمكنت من تفسير هذه المصادفات الغريبة لبلزاك منتقلة الى قصة اخرى تهمنا ايضاً .

والواقع أن الاخوين ميشيل بدأا بتكوين ثروتهما المعتبرة بعد جريمة فيتري ومنذ ذلك الوقت سمي أكبر المصرفيين « ميشيل السارق » بينما سمي الاصغر « ميشيل القاتل » . مصرفي قاتل ؟ يكون ثروته من السرقة والقتل ؟ هذا ما يقربنا بشكل فريد من النزل الأحمر . كما وأن في سنة تأليف هذه القصة ١٨٣١ ، أمكن لبعض الاوساط الباريسية أن تطلع بتأثر على أن « ميشيل القاتل » وهو مريض ، وشبه أعمى ــ أيكون كتايلفر مصاباً بنقطة في الدماغ ؟ ــ أراد رعاية قريبة شابة اسمها فيكتورين غيتو ، ستكون على ما يعتقد وريثته ، وبدت بين ليلة وضحاها موضع اغراء شاب لا يهتم كثيراً بالوساوس . ان الكاتب الذي سيتصور راو في **النزل الاحمر** ،ثم راستنياك في **الاب غوريو** يمكنه أن يثمن عاليا جميع هذه المصادر الروائية لوضع تخلقه دوطة معتبرة ، وجريمة مشكوك بها بما فيه الكفاية ، مع تغيير يمحصه على مبدأ المثقف المتنفذ .

ظهرت **النزل الأحمر** في العام ١٨٣١ ، **والأب غوريو** في العام ١٨٣٥ ، وقد طرأت على حكاية فيكتورين غيتو بين التاريخين تطوّرات مؤسفة ، فكما استبعدت فيكتورين تايلفر لصالح اخيها فردريك ــ أو ميشيل ، وفق بيانات بلزاك المتناقضة ــ فان فكتورين الحقيقية ذهبت ضحية وجود ابن سفاح « لميشيل القاتل » أعلن عنه تحت اسم ميشيل ــ مارك أنطوان لجون .

فيكتورين بعد جوزفين ، وميشيل بدلا من فردريك ، هكذا يصعد بلزاك بشكل لا يقاوم نحو المنابع . يجب أن يسجل أيضاً أن الاخوين ميشيل كموريسي ــ تايلفر ، كانا ممونين ، وهما شريكان لاوفرارد في شركة التجار المتحدين ، وبعد قضية ممونى اسبانية ، فان « ميشيل

السارق » الاكبر قد اتهم بالتضامن مع اوفرارد ، وفانلربرغ ودبره في العام ١٨٠٦ وبقرار من نابليون باختلاس سبعة وعشرين مليون فرنك ، والحال أن والد بلزاك بحكم وظيفته لدى دانييل دومرك ، وهو ممون يعرف جيدا أوفرارد وفانلربرغ ، هو في وضع تهمه فيه وقائع وتصرفات مموني الجيش بصورة عامة ، ويهمه تتبع أخبار قضايا آل ميشيل بصورة عامة ، وهذا ما فعله برنار فرنسوا وابنه من بعده ، لأن من بعده ، لان الوثيقة ما تزال موجودة في مكتبة سبولبرش في لوفنجول) التي احتفظت بنسخة عن حكم « ايضاحات مجملة » وحل الخصومة المتعلقة بمبلغ ١٨٨٥٠٠٠ فرنك الناجم عن قرار نابليون ، التي وقف فيها أمام القضاء في ١٨٠٦ وحتى ١٨٠٧ « ميشيل الابن البكر ، المصرفي السابق ضد فانلربرغ وأوفرارد » .

من جهتها قامت الدوقة دابرنتس باجراء تحقيق حول قضية فيتري وقد كانت شاهدة عدا عن ذلك ، على مشاحنة بسبب هذه القضية بين جوزفين ونابليون الذي يبدو انه لم يكن يشك بجرم « ميشيل القاتل » .

بواسطة الدوقة اذا ، وبواسطة ابيه ، أمكن لبلزاك أن يعرف بشكل تام الشخصيات التي قبل **الأب غوريو** أثارت قصصاً بمثل تنوع **المراة المهجورة في** « مشهد من الحياة الباريسية » **والنزل الأحمر في** « دراسة فلسفية » أنها قصص مختلفة لكنها قائمة على حقيقة يعرفها معاصرو بلزاك وتدهش في الوقت الحاضر : « ان راسماليي القرن التاسع عشر يقتلون نادراً ، ليجمعوا ثروات طائلة ، فلديهم طرق أكثر حذراً وأمناً لكن يبدو أن بلزاك لم يكن يعرفها جيداً في العام ١٨٣١ » وقد أمن « ميشيل القاتل » وحتى « ميشيل السارق » بجد وقائع عن طبائع العصر .

يمكن لأصحاب المصارف أن يقتلوا اذا ، ويمكن للعدالة أن تضل ، وقد كتبت لور سورفيل[1] : « ان موضوع **النزل الأحمر »** « قصة حقيقية ، مهما قيل عنها ، وقد رواها جراح قديم في الجيش ، صديق للرجل الذي حكم ظلماً » . اذا كنا لا نعلم شيئاً عن هذه « القصة

---

(١) اخت بلزاك .

الحقيقية » ، فيجب أن نسلم على الاقل ان النزل الاحمر قد دخلت بفضلها في **الدراسات الفلسفية** حيث يمكنها أن تصور بطريقة اخاذة مادية تأثيرات الفكرة : ان فكرة الجريمة لدى مانيان تشكل احدى الجريمتين وقد رضي مانيان أن يحكم من أجل هذه الفكرة وكأنه قد ارتكب الجريمة في الواقع ، وقد قبل القارىء ذلك الى حد ما لان « فكرة الجريمة قد وصلت الى درجة من الدقة . وكانت على حافة الفعل ذاته ، بحيث كادت تشكل جسماً واحداً معه، وأشاعت القلق فكأنها الفعل نفسه اضف الى أن بلزاك حرص على أن يبين أن مانيان نفسه كان فريسة :

« لقد خشي أن يكون قد أتم خلال نومه ، وفي نوبة من حركة لا شعورية مروبصة ، الجريمة التي كان يحلم بها مستيقظا » .

لم تفت بلزاك لتوضيح نظريته حول استقلال التفكير ومادية تأثيراته أن يستشهد بالسير في النوم وهو الاكثر نموذجية لبيان تأثير الفكر في التوجيه لتنفيذ أعمال دون تدخل الوعي ، اذا بحيث يبدو مستقلا واذا كان قد تطرق الى الظاهرة ، فانه لا يلح عليها ، فهي ما تزال حتى في وقتنا الحاضر غامضة ، وقد كانت اكثر غموضاً في زمن بلزاك وهو في هذا المجال كما يلاحظ بيير جورج كاستكس ، يتخذ شارل نوديه(١) مرشدا ان لم يكن دليلا ، والواقع أن نوديه نشر في شباط ١٨٣١ في مجلة باريس بحثاً بعنوان : « بعض مظاهر النوم » استخلص منه مونيير لي ياوانك تأثيرا ممكنا على **النزل الأحمر** ، ان المرحلة الليلية من قصة بلزاك يمكن ، فعلا ، أن تقرب الى مقطع في بحث نوديه يعرض فيه حكاية رسام ايطالي شاب نزل في فندق مليء الى درجة اضطر فيها أن يشارك مسافرا آخر في سريره ، وقد بدأ القلق جلياً على هذا الأخير ورجاه أن يربط له يديه ورجليه لأنه يتعرض لنوبات مسير في الليل.

اذا هل يعتبر بلزاك أخلاقياً ؟ أو فيلسوفاً ، أو مؤرخاً ، أو روائياً فقط ؟ ان النزل الأحمر وهي عمل **غير مشهور** ، يمكن مع ذلك أن تعين على رؤية بطلان مثل هذه الأسئلة ، فبلزاك لا يمكن ان يحصر بأبعاد احدى هذه الفئات ؟ وهكذا ففي **النزل الاحمر** يمكن ان نجد الملاحظة ، والفضول ، والدراسة ، والواقع والتخيل ، وأي فن في القص ، قصة

---

(١) شارل نوديه (١٧٨٠ – ١٨٤٤) كاتب فرنسي اشتهر بقصص الرعب والخرافة .

في القصة ، وتدرج مأساوي ، واضاءات متنوعة بمهارة ، ومثل ذلك من الظلال ، والبراعة ، والفكاهة ، والرحمة ، وهذه القصة البوليسية هي دراسة فلسفية ، وهي أيضاً دراسة طبائع ، وتفضيل بلزاك للاسباب المكتشفة لا يقلل من نجاحه في الوصول الى التأثيرات ، وهو رجل « منهج » لكنه لا يغلقه على نفسه ولا ينحصر فيه ، وتتجلى عبقريته في انه أراد أن « يستكشف » الانسان ، وانه قد توصل الى ذلك ، « ان على جميع الذين يتشرفون من بيننا بدعوتهم للشهادة أمام نتاج بلزاك أن يقولوا « هذه هي الحقيقة » . ليست الحقيقة الفلسفية المطلقة التي لم يسع اليها بلزاك ، ولم نجدها نحن ، وانما الواقع الحقيقي لوضعنا الثقافي ، والطبيعي والاخلاقي »(١) ، وبعد قرن من صاند يحكم آلن بالقول أيضاً :

« تعلمت من قراءة بلزاك أكثر مما تعلمت من الفلاسفة والسياسيين لان بلزاك يلقيني في المشكلة بالذات ، التي ينصهر فيها الفلاسفة احياناً ولكنهم لا يعرفون الاحتفاظ بها في مؤلفاتهم(٢) !

---

(١) جورج صاند .

(٢) آلن « مع بلزاك » .

المنزل الأحمر

لا أدري في أيّ عام احتفى أحد صيارفة باريس الذي كانت له علاقات تجارية واسعة جدّاً في ألمانيا بأحد اولئك الأصدقاء ، المجهولين طويلاً ، الذين يتخذهم التجار في مكان او آخر ، بالمراسلة . ذلك الصديق ، رئيس لا ادري ايّة موسّسة هامّة في نورمبرغ ، كان ألمانياً طيباً سميناً ، صاحب ذوق ومعرفة ، صاحب غليون خاصة ، له وجه نورمبرغي جميل عريض ذو جبين مربّع أصلع جدّاً تزينه بضع شعرات شقراً متفرّقة . كان يمثّل نموذج أبناء جرمانيا الخالصة النبيلة تلك الزاخرة بالسجايا الرفيعة والّتي لم تتبدّل قطّ طبائعها الهادئة حتّى بعد غارات سبْع . كان الأجنبّي يضحك بعفوية ويستمع بكياسة ويعبّ الشراب بسرعة معجبة بادياً محبّاً نبيذ الشامبانيا ربّما بذات قدر محبّته خمور « جوها نيسبيرغ » والصهباء . كان يُدعى « هيرمان » ، كجميع الألمان الذين يخترعهم المؤلّفون تقريباً . وكرجل لا يعرف ان يصنع امرأً باعتدال ، كان راسخاً في جلسته الى مائدة الصيرفي يأكل بتلك الشهية . التودسكية»(١) البالغة الشهرة في اوربا ، مختاراً

---

(١) كلمة « تودسك tudesque » تعني « جرماني » ونستعمل كصفة فقط .

من الأطعمة الأدسم . وكان ربّ البيت قد دعا ، تكريماً لضيفه ، بعض الأصدقاء الخلّص ، بين رأسماليين وتجار ، وعدّة نسوة انيسات مليحات كانت ثرثرتهن المحبّبة وتصرفاتهن الصريحة منسجمة مع الهشاشة الالمانية . حقّاً ، لو كانت أتيحت لكم ، كما شاء لي الحظّ ، مشاهدة ذلك الجمع البهيج من قوم أغمدوا مخالبهم التجارية للتّحدث في متع العيش لتعذّر عليكم جدّاً كره الحسومات الفاحشة أو استنكار الإفلاسات . ليس في وسع المرء ان لا يفعل غير السوء . لذا ، لابدّ في مجتمع القرصنة من ان تُصادف ساعات حلوة يشعر فيها واحدنا ، وهو على سفينتهم الرهيبة ، كأنّه على أرجوحة .

— قبل ان يغادرنا السيد هيرمان آمل ان يقص علينا قصّة ألمانيّة أخرى تملؤنا رعباً .

فاهت بتلك الكلمات عند تقديم الفاكهة فتاة شقراء شاحبة كانت قرأت ولا ريب روايات والترْ سكوتْ وحكايات هوفْمان . كانت وحيدةَ المصرفي ، مخلوقةً فاتنة تكمُل تثقّفها بارتياد مسرح « الجيمناز » وتكلّفَ بالتمثيليات التي يعرضها . في تلك الآونة كان الضيوف على تلك الحالة الهانئة من الفتور والسكوت التي تضعنا فيها وجبة لذيذة حين نكون بالغنا في تقدير طاقتنا الهضمية . كان كلّ من المدعوين مُسنداً ظهره الى كرسيّه ، معتمداً قليلاً بمعصمه حافة الخوان يلهو في استرخاء بنصل سكينه الذهبي . عندما يصل عشاء الى تلك الآونة من الانتهاء يعبث البعض ببزرة إجّاصة ويدوّر آخرون لبّ خبزٍ بين الإبهام والسبابة . ويرسم العشاق حروفا لاشكل لها بواسطة بقايا الثمار . ويحصي البخلاء بزراتهم ويصفّونها في صحنهم كما يرتّب كاتب مسرحي ممثّليه

الثانويين عند خلفية الخشبة . إنها ظواهر استمراء أغفلها كتاب « بْريّا ـ سافاران »(١) وهو المؤلّف البالغ الإحاطة . كان الخدم قد اختفوا . وكانت الفاكهة اشبه بأسطول بعد المعركة ، حائرة منهوبة مُهانة . كانت الأطباق تتيه فوق المائدة على الرغم من جهد ربّة المنزل في محاولة جعلها تعُاد الى مكانها . وكان أشخاص يطالعون مشاهد من سويسرا معلّقة بتناظر على الجدران الرمادية لغرفة الطعام . ما من مدعوّ كان يحسّ مللاً . ولسنا نعرف أحداً الى الآن شعر بكآبة في أثناء هضم عشاء شهيّ فنحن نحبّ في ذلك الظرف البقاء في مالا أدري كنهه من سكون ، هو حال وسط بين تأمّل المفكّر وقناعة الحيوانات المجتّرة تحسُنُ تسميته بالحنين الجسدي الى الالتذاذ الذوقي . لذلك انتفت المدعوّون جميعاً نحو الألماني الطيب والكلّ مبتهج بأن أمامه حكاية يسمعها حتى لو كانت غير ممتعة . فخلال تلك الاستراحة الرخيّة يرنّ صوت الراوي عذباً دائماً في حواسّنا الخدرة ويساعد على هناءتها الخاملة . كنت ، كهاوي مشاهد ، أنظر باعجاب الى تلك الوجوه المزينّة ببسمة المُنارة بشموع ، التي ضرّجتها الأطعمة الفاخرة . كانت تعابيرها المتنوعّة تحدث تأثيرات طريفة وسط المواثل(١) والسلاسل الخزفية والفواكه والأواني البلّورية .

وفجأة استوقف خيالي مظهر الضيف الجالس بالضبط مواجهاً لي . كان رجلاً معتدل القامة شائب الشعر ضحوكاً له هيئة وسلوك صرّاف يدل مرْءاه على أنة ذو ذكاء جدّ عاديّ .وما كنت فطنت له قبلاً . وفي ذلك الحين بدا لي وجهه ، الذي كدّره على الأرجح خُفوق

---

(١) بريا ـ سافاران : « ذواقة » فرنسي ، صاحب كتاب « فيزيولوجية الطعم » (١٨٢٦)

(٢) الماثلة : المنارة التي يركز عليها السراج المعروفة بالشمعدان

الضوء ، وقد تغيرت سيماؤه ، إذ غدا ممتقع اللون حتى لكأنه وجهُ مُدنفٍ حضره الموت . وبينما جمد كالشخوص المصوّرة في لوحةٍ جامعة كانت عيناه الذاهلتان مثبتتين على ضلوع سدّادة من زجاج . غير أنه لم يكن يعدّها ، بالتأكيد بل يبدو مستغرقاً في تفكير شارد في المستقبل أو في الماضي . وساقني طول تفرّسي في تلك السحنة الغامضة الى التساؤل : وقلت في نفسي : أهو عليل ؟ هل أفرط في الشرب ؟ هل أفقده ثروته انخفاض قيمة أسهم الدولة ؟ هل ينوي خداع دائنيه ؟

وقلت لجارتي وأنا أشير الى وجه الغريب : أنظري ليس هذا وجه مُشرِف على الأفلاس ؟

واجابتني : أوه إذن لكان أكثر بهجة .

ثم هزّت رأسها برشاقة واضافت : إذا أفلس هذا يوماً فسأذهب لإعلان ذلك في الصين . انه يملك اراضي زراعية بمليون فرنك . وهو متعهد تموين سابق للجيوش الامبراطورية ، رجل طيّب غريب الطباع . تزوّج ثانية طمعاً في ربح مقدّر بيد أنه جعل امرأته في غاية السعادة . له ابنة حلوة ظلّ مدة طويلة يرفض الإعتراف بها ، لكن موت ابنه لسوء حظّه في مبارزه اضطرّه الى ضمّها اليه لأنه لم يعد قادراً على الإنجاب وهكذا أصبحت الفتاة الفقيرة فجأة احدى أغنى الوريثات في باريس . ان فقدان ذلك الابن الوحيد ألقى هذا الرجل المسكين في حزن يعود أحياناً الى الظهور .

وفي تلك اللحظة شخص المتعهد ببصره نحوي وارعشتني نظرته لشدّة ما كانت تحمل من كأب وتفكير . كانت طرفة العين تلك

ولا شك تخصّ حياة بكاملها . على ان اساريره انفرجت بغتة وتناول السدّادة الزجاجية ووضعها بحركة آلية على كُراز مليء بالماء كان أمام صحنه وادار رأسه نحو السيد هيرمان باسماً . لا ريب في أن ذلك الرجل المغتبط بالتذاذاته الطعامية كان فارغ الذهن خالي البال . ولذا خجلت نوعاً ما من صرف قدرتي التخمينية الى « تشريح » رأسماليّ بليد . وفي اثناء قيامي ، سُدى بملاحظات فِراسية حشا الألماني الطيّب أنفه بنتفة نشوق وبدأ قصّته . سيكون عسيراً جدّاً عليّ ان اعيدها بذات الصيغ ، مع انقطاعاتها المتكرّرة واستطراداتها المُسهبة ولذلك كتبتها على طريقتي تاركاً الأخطاء للنورمبرغي ، آخذاً ما يمكن أن يكون فيها من شاعرية ومن إمتاع ، في سلامة الكتّاب الذين ينسون ان يضعوا تحت عنوان كتبهم : « مترجم من الألمانية »

التصوّر والفعل

— حول نهاية « فنْدِمْيير »(١) من العام السابع ، العهد الجمهوري المقابل في العرف الحالي يوم ٢٠ تشرين الاول عام ١٧٩٩ كان شابّان منطلقان من «بونّ» منذ الصباح قد وصلا عند الغروب ضواحي « اندرناخ » وهي بليدة واقعة على الضفة اليسرى من نهر « الراين »

---

(١) في ٢٤ تشرين الثاني من عام ١٧٩٣ وضعت الجمعية التأسيسية القومية الناشئة عن الثورة الفرنسية « التقويم الجمهوري » فجعلت السنة تبدأ في اعتدال الخريف (٢٢ ايلول وتتألف من اثني عشر شهراً يعد كل منها ثلاثين يوماًيضاف اليها خمسة أوستة «أيامتكميلية» تخصص للاحتفال « بالأعياد الجمهورية » وأعطت تلك الشهور أسماء مستوحاة من الأنواء المقابلة . وشهر « فنديمير » هو « شهر الرياح » . وكانت الأشهر مقسمة الى ثلاث « عشريات » تسمى ايامها حسب رقمها المتسلسل .

على مسافة بضعة أميال من «كوبلنتز» حينذاك كان الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال «أوجورو» يناور (١).

أمام النمسويين الذين كانوا يحتلّون الضفة اليمنى للنهر. كان المقرّ العام للفرقة الجمهورية في كوبلنتز وكان أحد الطوابير التابعة لفيلق أوجورو معسكراً في اندرباخ. كان المسافران فرنسيين. ولدى رؤية بزّتيهما الزرقاوين الممزوجتين بأبيض ذاتي ظهر الأكمام من قطيفة حمراء، وسيفيهما، وبأخصّ قبعتيهما المغلّفتين بكتّان مشمّع أخضر المزيّنتين بقنزعة من ريش مثلّثة الألوان كان الفلاحون الألمان أنفسهم سيتبيّنون فيهما جرّاحين عسكريين، من رجال العلم والفضل أولئك المحبوبين في آغلبهم لا في الجيش وحده بل أيضاً في البلاد التي غزاها جنودنا. في تلك الحقبة كان كثير من أبناء الأسر المنتزعين من مرحلة تدرّبهم الطبّي بموجب قانون التجنيد الجديد الذي استصدره الجنرال جوردان قد فضّلوا طبعاً أن يتابعوا دراستهم في ساحة الحرب على أن يلزموا بالخدمة العسكرية التي لا تتلاءم مع تربيتهم الأوّلية ومصائرهم الهادئة. كان اولئك الفتيان، طلاّب العلم المسالمون الأنجاد يؤدّون بعض الخير وسط كل تلك الويلات ويتعاطفون مع ذوي المعرفة في مختلف المناطق التي كان يعبرها تمدّن «الجمهورية» الغاشم. كان ذانك الشابّان المجهّز كلاهما بجواز مرور، والمزوّد بأمر مهمّة «كمعاون مساعد» موقّع مع الجنرالين «كوست» و «برنادوت» يقصدان الطابور الذي ألحقا به. كان كلاهما ينتمي الى عائلة

---

(١) ناور : هي في القاموس «شنائم» وهي هنا بالمعنى العامي الشائع : قام بتدريبات

(١) ناور : هي في القاموس «شناتم» وهي هنا بالمعنى العامي الشائع : قام بتدريبات

بورجوازية من « بوفيه » زهيدة الثروة لكن تُتوارث فيها دماثة واستقامة الأرياف وكأنهما جزء من تركة . وبما انهما سيقا الى ساحة الحرب قبل الموعد المحدّد لاستلامهما وظيفتيهما وبدافع فضول طبيعي لدى الشبيبة ، اختارا السفر في عربة الركّاب الكبيرة حتى سترسبورغ ومع ان الحرصى الأمومي لم يدعهما يحملان سوى مبلغ ضئيل كانا يحسبان نفسيهما غنيّين لأن معهما بضع قطع ذهبية من ذات العشرين فرنكا ، وهي كنز حقيقي في وقت بلغت فيه الحوالات المالية الحكومية ادنى دركات انحطاطها وغدا الذهب يساوي دراهم كثيرة. وانساق المعاونان المساعدان ، اللذان لم تتجاوز سنّهما العشرين عاماً ، مع شاعرية وضعهما بكل حماس الفتّوة . ومن سترازبوغ الى بون زارا أنحاء الإمارة وضفاف « الراين » كفنّانين ، كفيلسوفين ، وكمراقبين . عندما نكون مندوبين لمستقبل علمي نكون في تلك السنّ متعدّدي الشخصية لكن على معاون مساعد حتى وهو يغازل أو وهو يسافر ، ان يدّخر العناصر الأوّلية لثروته أو لمجده القادمين . لذا كان الشابّان قد استسلما لذلك الإعجاب العميق الذي يتملك الناس المثقفين لمنظر ضفاف الراين ومشاهد « السواب » بين « مايانس » و « كولونيا » : طبيعة كثيفة غنية وافرة التضاريس مليئة بتذكارات إقطاعية ، مخضوضرة لكن تحفظ في كل مكان أثر الحديد والنار . فقد كوى لويس الرابع عشر وقائد جيشه توريّن تلك المنطقة الرائعة . ففي محلّ أو آخر اطلال تشهد على غطرسة ، أو ربّما على فطنة ملك « فرساي » الذي أمر بهدم القصور البديعة التي كانت تتزيّن بها تلك البقعة من ألمانيا . ومن يشاهد تلك الأرض الساحرة المغطّاه بالغابات والزاخرة بطرائف القرون الوسطى

يدرك العبقرية الألمانية وتخيّلاتها وروحانيتها . على ان اقامة الصديقين في بون كانت لغرضَي العلم والمتعة في آن . فالمشفى الكبير للجيش الفرنسي – الباتافي(١) ولفيلق أوجورو كان مقاماً في قصر الأمير نفسه . لذا ذهب معاونا المساعد الحديثان لمقابلة أصحاب و لتقديم كتب توصية لرؤسائهما وللاستئناس هناك بأولى الإنطباعات في مهنتهما لكن ، أيضاً هناك كما في الأماكن الأخرى تجرّدا من بعض من تلك التحيّزات الحصرية التي نظلّ مخلصين لها طويلاً لجانب نُصبنا وجمال مسقط رأسنا . راحا ، وقد ادهشهما مرأى الأعمدة الرخامية المزيّنة القصر الأميري ، يجيلان النظر باعجاب في فخامة الأبنية الألمانية والتقيا عند كل خطوة كنوزاً جديدة عريقة أو عصرية . ومن حين الى حين ، كانت الطرق التي يتسكع فيها الصديقان متّجهين نحو اندرناخ تقودهما الى ذروة جبل غرانيتي أعلى ممّا حوله . ومن هناك ، ومن خلال فرجة في الغابة أو شقّ في الصخور كانا يبصران منظراً من الراين مكتّفاً بالصلصال ، أو مزخرفاً بنباتات قويّة . كانت الأودية والدروب والأشجار تبثّ ذلك الشميم الخريفي الذي يدعو الى التأمل وكانت قمم الاحراج قد بدأت تتذهّب ، ان تتخذ الواناً لامعة داكنة هي علامة الشيخوخة كانت الاوراق تتساقط لكن السماء صافية الزرقة وكانت المسالك الجافّة ترتسم كخطوط صفراء في المشهد المُنار آنذاك بالأشعة المنحرفة لشمس غاربة . وقبل نصف ميل من اندرناخ سار الصديقان وسط سكون عميق كما لو ان الحرب لم تكن تعيث تلك البلاد

(١) « الجمهورية الباتافية » الاسم الذي اتخذته الأراضي المنخفضة (هولندا) من عام ١٧٩٥ الى عام ١٨٠٦ و « الباتاف» قوم جرماني كان يسكن هولندا قبل عهد قيصر .

الجميلة ، وتبعا ممراً مهيّأً للماعز عبر الجدران الغرانيتية الزرقاوية العالية التي تعتلج مياه الراين بينها . ثم لم يلبثا ان هبطا أحد منحدرات الشعب الذي تقوم في نهايته البليدة المتربّعة بتأنّق على شاطىء النهر حيث توفّر للمراكبيّة مرسىً رفيهاً .

وهتف أحد الشابين ، ويُدعى « بروسبير مانيان » ساعة تراءى بيوت اندرناخ المدهونة المتراصة كبيَض في سلّه تفصل بينها اشجار وجنائن وأعواد مُزهرة : ان ألمانيا بلاد رائعة . ثم سرّح طرفه بافتتان في الظهور المدبّبة البارزة الروافد وفي الادراج الخشبية وفي الأروقة لألف مسكن هادىء ، وفي المراكب التي ترجّحها الأمواج في المرفأ

وفي لحظة مالفظ السيد هيرمان اسم بروسبير مانيان تناول المتعهد الكُراز وسكب لنفسه ماء في كأسه وأفرغها بجرعة واحدة . واذ لفتت تلك الحركة انتباهي فكأنما لاحظت يديه ترجفان قليلاً وجبينه يتندّى وسألت جارتي اللطيفة :

ما اسم المتعهّد السابق ؟

وأجابتني : « تايْفير »(١)

وصحت إذ بصرت ذلك الشخص العجيب الطبع يمتقع : هل بك شكوى ؟

فقال وهو يشكرني بايماءة مهذّبة : كلاّ ، مطلقاً .

وأضاف وهو يشير برأسه الى المدعوين الذين كانوا يرمقونه معاً . إني استمع .

---

(١) ينظر « الأب غوريو » و « الرق المتكمش » للمؤلف

وقال السيد هرمان : لقد نسيت اسم الشاب الآخر لكن إسرارات بروسبير مانيان عرّفتني ان رفيقه كان اسمر نحيفاً فكَهاً . وإذا أذنتم لي سأسميّه « فيلهيم » لإضفاء وضوح أكثر على عرض هذه القصة .

وتابع الألماني الطيّب روايته بعد أن أعطى معاون المساعد الفرنسي على تلك الصورة ودون اعتبار للرومنسية و للطابع المحلّي ، إسماً ألمانياً .

— عندما وصل الشاّبان اندرناخ كان الليل قد خيّم . وقدّرا أنهما سيضيعان وقتاً طويلاً في العثور على رؤسائهما وفي جعلهم يعرفونهما وفي الحصول منهم على سكن عسكري . في مدينة مليئة سلفاً بالجنود فقررا قضاء آخر ليلة حرّية لهما في نُزَل واقع على مسافة مائة خطوة من اندرناخ كانا قد أعجبا من أعلى الصخور ، بألوانه الخلاّبة التي زادتها بهاء اشعة الشمس الغاربة . كان ذلك النزل المدهون كلّه بالأحمر يحدث تأثيراً طريفاً في المنظر سواء بانفصاله عن كتلة المدينة المجّمعّة أو بضادته بسجافته الأرجوانية العريضة خضرة الكشّات الورقية المختلفة ، وبلونه الزاهي ألوان الماء الكابية . وكان ذلك الفندق يدين بتسميته للتزويق الخارجي الذي فُرِض عليه منذ عهد سحيق بنزوة خاطر من مؤسِّسه . وحفظ له كساءه تفاؤل بالربح طبيعي جدّاً لدى جميع الذين تعاقبوا على امتلاك ذلك المحطّ الشهير بين مراكبيّ الراين . ولدى سماع خطو الجوادين تقدّم صاحب « النزل الأحمر » الى عتبة الباب وصاح : قَسَماً أيها السيدان لو تأخرتما قليلاً لاضطُرِرتما الى المبيت في العراء شأن معظم مواطنيكما المخيّمين في الطرف الآخر من اودرناخ . كل الأسّرة مشغولة عندي واذا كنتما

مصرّين على النوم في سرير جيّد فليس لديّ ما أقدّمه لكما سوى غرفتي . أمّا جوادا.كما فسآمر بأن يُفرش لهما قشّ في ركن من الفناء ذلك ان إسطبلي مليئ اليوم بمسيحيين . وسأل بعد صمت قصير : هل السيّدان قادمان من فرنسا ؟ فصرخ بروسبير : بل من بوّن ولم نتناول طعاماً الى الآن منذ الصباح .

قال صاحب النزل وهو يهزّ رأسه : أوه ، أمّا عن الزاد فان الناس يأتون للقصف من مسافة عشرة أميال . ستحصلان على مأدبة أميرية : سمك الراين وكفى هذا بياناً وبعد ان عهد معاونا المساعد بدابتيّهما الى مضيفهما الذي راح ينادي خدمه دون جدوى دخلا صالة النزل العامة . ولم تمكنهما في البدء السحب الكثيفة والبيضاء التي كان ينفثها جمع غفير من المدخّنين ، من تبيّن الناس الذين سيكونان معهم . لكن بعد ان جاسا قرب مائدة في التصبّر العملي لأولئك المسافرين الفلاسفة الذين أقروا بعدم فائدة الضجيج وضحت لهما عبر أبخرة التبغ المكمّلات المحتّم وجودها في نزل ألماني : الموقد وساعة الحائط والمناضد وأكواب الجعة والغلايين الطويلة . كانت هناك سحنات متباينة ، يهودية والمانية ، ثم الوجوه الخشنة لبعض المراكبية.وكانت كتفيّات عدة ضباط فرنسيين تتلألأ في ذلك الضباب وقعقعة المهاميز والسيوف تدوّي بلا انقطاع على بلاط الأرضية . كان من الحضور من يلعب الورق ، ومنهم من يناقش أو يصمت أو يأكل أو يشرب أو يتمشّى . وجاءت امرأة قصيرة بدينة في القبعة من مخمل أسود و المئزر الأزرق والفضي والشعر المضفور وفي يدها مجموعة المفاتيح وعلى صدرها المشبك الفضّة ، وهي العلامات المميّزة لجميع ربّات الأنزال الألمانية اللواتي نُقِل لباسهن بألوانه

الصحيحة في رسوم هي من الكثرة بحيث لا حاجة الى وصفه هنا .
قلنا إذن ان زوجة صاحب الفندق جاءت تُصبرّ وتُشوّق الصديقين بمهارة فائقة . وشيئاً فشيئاً خفتّت الجلبه انسحب المسافرون وتبدّدت سحابة الدخان . وحين تمّ اعداد مائدة معاوني المساعد وظهرت على الخوان سمكة الراين المربّعة التقليدية كانت الساعة بلغت الحادية عشرة وكانت الصالة خالية . كان سكون الليل يمكّن من سماع مُبهم للصوت الذي تحدثه الخيول وهي تأكل علفها أو تضرب بحوافرها الأرض ، ولخرير مياه الراين ولتلك الضوضاء المختلطة التي تدنّ في فندق ممتلىء حين يأوي كلّ الى فراشه . كانت الأبواب والنوافذ تُفتح وتغلق ، وكانت اصواتٌ تُغمغم كلمات غير واضحة وبعض مساءلات تدّوي في الغرف . وفي تلك الآونة من صمت وضجّة أصغى الفرنسيان والمضيف المنهمك في إطراء اودرناخ والطعام وخمر الراين والجيش الجمهوري وزوجته في نوع من اهتمام الى جشّة(١) بعض المراكبية والى حفيف سفينتة ترسو في الميناء وبادر صاحب النزل الى الخروج غير مفاجىء ولا شك بذلك اللجب . ولم يلبث ان عاد مستصحباً رجلا قصيرا سمينا يتبعه مراكبيان حاملان حقيبة ثقيلة وبضع صرر . وبعد وضع الرزم في الصالة حمل الرجل القصير حقيبته وجلس بلا تكلّف الى المائدة في مواجهة معاوني المساعد وقال للمراكبيّين ، إذهبا فناما في سفينتكما بما ان النزل ممتلىء . وبمراجعة الفكر سيكون ذلك أفضل :
وقال المضيف للوافد الجديد : سيدي ، هذا كلّ ما تبقّى من مؤن لديّ – واشار الى العشاء المقدّم الى الفرنسيين . ليس عندي كسرة

(١) الجشة : الصوت الخشن

خبزولا عظمة واحدة.ـ وكَرِنْبيته ؟ـ ليس منها ما يكفي لحشْوِ كشتبان زوجتي . وكما سبق ان تشرّفتُ باعلامك ، لن يسعك ان تحصل على مرقد غير الكرسي الذي تجلس عليه ، وعلى غرفة غير هذه الصالة .

عندئذ ألقى الرجل القصير على المضيف وعلى الصالة وعلى الفرنسيّين نظرة شفّ منها ذات القدر من الاحتراس ومن الخوف .

وقال السيد هيرمان مستطرداً : هنا ينبغي أن أخبركم اننا لم نعرف قط الأسم الحقيقي لذلك الرجل الغريب وتاريخه . فكل ما علمناه من أوراقه انه كان قادماً من « آخِنْ » وأنه تسمّى « فالهنفر » وكان يملك في ضواحي « نوفيلد » مصنع دبابيس عظيم الشأن . وكمثل جميع اصحاب المصانع في ذلك البلد كان يرتدي سترة طويلة من قماش عادي وبنطالاً وصدرة من مخمل أخضر أدخن وحذاء أسوق وحزاماً من جلد . كان وجهه مستديراً تماماً وخُلقه صريحاً بشوشاً لكن تعذّر عليه جداً خلال تلك الأمسية ان يُخفي كليّاً تخوّفاً مكنوناً أو ربّما هموماً مبرّحة. ظل رأي صاحب الفندق ثابتاً على ان ذلك التاجر الألماني كان فارّاً من بلده . وعلمت لاحقاً ان مصنعه أُحرق في احدى تلك المصادفات المشؤومة البالغة ،تكرُّر الحدوث في زمن الحرب. وعلى الرغم من تعبيره المغتّم عموماً كان وجهه ينبىء عن هشاشة فيّاضة . كان ذا قسمات مليحة وعلى الأخصّ ذا عنق ابرزت بياضه ربطة سوداء الى حدّ جعل فيلّهم يلفت اليه نظر بروسبير ساخراً . . .

وهنا شرب السيد تايّفير كأس ماء .

ـ ودعا بروسبير التاجر بكياسة الى مقاسمتهما عشاءهما ، وقبل فالهنفر الدعوة ببساطة كرجل واثق من انه قادر على ردّ ذلك الجميل . وبطح حقيبته على الأرض ووضع فوقها قدميه وخلع قبعته وتمكن في قعدته الى المائدة،ونزع قفازه وطبنجتين كان يعلّقهما على حزامه . وسارع صاحب النزل الى احضار عدّة الأكل وبدأ الثلاثة يُشبعون سغبهم صامتين . كان جوّ الصالة من الحرارة وكان الذباب من الكثرة بحيث رجا بروسبير المضيف ان يفتح النافذة المطلّة على الباب كيما يتجدّد الهواء . وكانت تلك النافذة مسلّحة بقضيب حديدي يدخل طرفاه في ثقبين مُعَدَّين في جانبي الفُرجة ولمزيد من الأمان كانت حلزونتان معلقتان كلّ واحدة على مصراع تتلقيان لولبين . وتشاء المصادفة ان يفحص بروسبير الطريقة التي يستعملها المضيف في فتح النافذة .

ـ وقال لنا السيد هيرمان : لكن ، مادمت أحدثكم عن المواضع يجب ان أصف لكم تقسيمات النزل الداخلية إذ على المعرفة الدقيقة بالأماكن يتوقّف إمتاع هذه القصّة كان للصالة حيث الأشخاص الثلاثة الذين أحدّثكم عنهم مخرجان . أحدهما ينفتح على طريق اندرناخ الذي يحاذي الراين . هناك ، قبالة النزل كان يوجد طبعاً رصيف صغير رُبطت اليه السفينة التي استأجرها التاجر لسفرته . وكان المخرج الآخر ينفتح على فِناء النزل . و كان ذلك الفناء محاطاً بجدران شاهقة ومليئاً حينذاك بحيوانات وبجياد لأن الاسطبلات كانت غاصّة بالناس . كان الباب الكبير موصداً ياحكام شديد جعل المضيف ، توخيّاً للسرعة يُدخل التاجر والمراكبيّين من باب الصالة المنفتح على الشارع . وبعد ان

فتح النافذة حسب رغبة بروسيير مانيان راح يغلق ذلك الباب واولج القضيبين في ثقوبها وشدّ لوالب الحلزونات . وكانت غرفة المضيف التي سينام فيها معاونا المساعد ملاصقة للصالة العامّة ومفصولة بجدار رقيق جداً عن المطبخ حيث سيمضي المضيف وزوجته على الأرجح الليل . كانت الخادمة قد خرجت ومضت تبحث عن مرقد في معتلفٍ ما ، أو في زاوية عنبر أو في ايّ مكان آخر . ومن السهل ادراك ان الصالة العامة وغرفة المضيف والمطبخ كانت منعزلة نوعاً ما عن بقيّة النزل .

هتف فيلهيم وهو يرنو الى السماء بعد ان انتهى المضيف من إرتاج الباب : ما أكملَ هذا الصمت وما أجمل هذه الليلة . كانت طبطبة الماء الصوت الوحيد المسموع آنذاك .

وقال التاجر للفرنسيّين : أيها السيّدان إسمحا لي ان اقدّم اليكما بعض زجاجات من الخمر تصاحب سمكتكما المربّعة اننا نستريح من تعب النهار بالشرب . ومن مظهركما ومن حالة ثيابكما أرى انكّما قطعتما مثلي اليوم شوطاً طويلاً .

ووافق الصديقان وخرج المضيف من باب المطبخ ليذهب الى قبود الواقع على الأرجح تحت ذلك القسم من البناء . وعندما صارت على الخوان خمس زجاجات جديرة بالإعتبار احضرها المضيف كانت زوجة هذا قد أتـمت تقديم الوجبة . وألقت على الصالة و على الأطعمة نظرتها كربّة منزل ، ثم ، وقد تأكدت من انها استبقَت كل مطلب من المسافرين ، عادت الى المطبخ . ولم يسمعها السمّار الأربعة — فقد دُعي المضيف الى المُشاربة — تأوي فراشها . لكن ، بعد آن ، في فواصل

الصمت المتخلّلة احاديث الشُروب ، علت شخرات رنانة ضخّمت صداها الدفوف النخرة المشكِّلة حجرة السلّم التي لجأت اليها فابتسم لسماعها الصحب وبالأخصّ المضيف . وقرب منتصف الليل ، حين لم يبق على المائدة سوى خبز محمّص وجبن وفواكه مجفّفة وخمر لذيذة تبسّط السمّار ولا سيّما الفرنسيان الشابّان فقد أخذا يتكلّمان عن بلدهما وعن دراساتهما وعن الحرب . وأخيراً تفرّع الحديث و استجلب بروسبير مانيان دمعات في عيني التاجر عندما راح ، بالصراحة المعروفة في أهل « بيكارديا » وبسذاجة طبيعة طيبّة رقيقة ، يخمّن ماقد تكون تفعله والدته في حين وجوده هو على ضفاف الراين : « إني اراها تتلو صلاتها المسائية قبل ان تذهب الى السرير . إنها بالتأكيد لا تنساني وتتساءل ولا ريب : أين هو ، صغيري بروسبير ؟ لكن اذا كانت كسبت في لعب الورق بضعة فلوس من جارتها — واضاف ملتفتاً الى فيلهيم : من والدتك ربّما — فستودعها في الاناء الكبير من الفخّار الأحمر حيث تجمع المبلغ اللازم لشراء الثلاثين « الأربنتات»(١) المحصورة ضمن مزرعتها في « ليشفيل » . هذه الاربنتات الثلاثون تساوي حتماً قرابة ستين ألف فرنك . ويالها من مروج خصبة . آه ، لو كُتب لي ان أملكها يوماً لقضيت حياتي كلّها في ليشفيل كم تمنّى والدي ثلاثين الأربنتات هذه والساقية الصغيرة المتعرّجة في تلك الحقلة . وفي النهاية توفّي دون ان يتمكن من شرائها . لقد مرحت فيها كثيراً

وسأل فيلهيم : وأنت ياسيد فالهنفر ، أليست لك أمنية .

---

(١) الأربنت : مساحة ارض زراعية تتراوح حسب المنطقة بين ثلاثة الاف وخمسمائة وبين خمسة الاف متر مربع .

قال : نعم أيها السيد ، نعم ، لقد كادت تتحقّق ، لكن الآن . . .
وصمت الرجل ولم يكمل جملته .

وقال المضيف الذي تورّد وجهه : أنا اشتريت في العام الماضي بستانا كنت اتمنى حيازته طيلة عشر سنوات . . .

وظلّوا يتحادثون على هذه الصورة كاناس أطلقت ألسنتهم الخمر وشعروا نحو بعض بتلك الصداقة العابرة الّتي نمنحها بسخاء في السفر ، بحيث ان فيلهيم ، لما توجّهوا للنوم ، عرض ان يتنازل للتاجر عن سريره قائلاً له : بوسعك قبول ذلك دون حرج خصوصاً لأني استطيع النوم بجانب بروسبير ، وما هذه بالتأكيد أول مرّة ولا آخر مرّة . أنت عميد السنّ بيننا وعلينا تكريم الشيخوخة . وقال المضيف : لا داعي لهذا التنازل فعلى سرير زوجتي فُرش عديدة ويمكنكم وضع احداها على الأرض . وذهب ليغلق النافذة مُحدثاً الجلبة الّتي تقتضيها تلك العملية الاحتراسية . وقال التاجر : فبات . واضاف خافتاً صوته ناظراً الى الصديقين : اعترف بأني كنت أتمنّى ذلك. فالمراكبيّان يبدوان لي مريبين. وفي ليلتنا هذه يسرّني ان اكون برفقة شابيّن شهمين طيبيّن ، برفقة عسكريين فرنسيين . ان معي مائة ألف فرنك بين ذهب وماس في حقيبتي . وكانت الرصانة الوديدة الّتي تلقّى بها الشابّان تلك المسارّة المتهوّرة باعث اطمئنان للتاجر . وساعد المضيف السُفّار على نقض أحد السريرين ، ثم بعد ان ترتب كل شيء على أفضل ما أمكن حيّاهم وانصرف ليْنام .

وتفاكه التاجر ومعاون المساعد حول طبيعة وساداتهم ووضع بروسبير محفظته الطبية ومحفظة فيلهيم تحت فراشه لإعلائه والتعويض عن المخدّة

الطويلة الّتي تنقصه في حين وضع فالهنفر ، كمزيد من الاحتياط، حقيبته تحت رأسه . وقال بروسبير : سننام كلانا على ثروتينا ، أنت على ذهبك وأنا على عدّتي . بقي ان نعلم اذا كانت ادواتي ستجلب لي من الذهب قدر ما حصلتَ عليه أنت . فقال التاجر : بوسعك ان تأمل ذلك فالجهد و الأمانة يتغلبّان على كل شيء ، لكن عليك بالصبر . ولم يلبث فالهنفر وفيلهيم ان رقدا . لكن بروسبير مانيأن ، إمّا لأن فراشه كان مفرط الخشونة ، وإمّا لأن تعبه الشديد كان سبب أرق له ، وإما لحالة نفسية مقدورة ، ظلّ مستيقظاً . وسارت خواطره في مزلقة سيئة . فكّر حصْراً في المائة ألف فرنك الّتي ينام فوقها التاجر . كانت مائة ألف فرنك بالنسبة اليه ثروة طائلة حاضرة . بدأ باستخدامها على الف طريقة مختلفة بانياً قصوراً وهمية كما نفعل جميعاً باغتباط خلال الفترة الّتي تسبق سُباتنا ، في تلك الساعة حين تولد الصور مشتبهة في ذهننا وحين كثيراً ما تكتسب الفكرة في هدأة الليل قوة عجيبة.لبّى تمنّيات أمّه ، اشترى الأربنتات الثلاثين ، تزوّج أنسة من « بوفيه » كان الفارق بين ثروتيهما يحظر عليه انيصبو اليهافي تلك الآونة.هيّأ لنفسهبذلك المبلغ حياة نعيم رأى نفسه سعيداً ، ربّ أسرة ، غنيّاً ، وجيها في إقليمه ، وربما عمدة « بوفيه » . و مع احتدام سجيتّه « البيكاردية »تلّمس وسائل تحويل أوهامه الى حقائق . بذل حماساً فائقاً في تدبير جريمة نظريّاً . ومع تخيّله موت التاجر كان ليعاين بوضوحٍ الذهب والماسات . بل كانت تخطف بصره . كان قلبه يخفق . كان التفكّر ذاته جناية ولا شك . وراح وقد سُحر بتلك الكمّية من الذهب يتعلّل نفسيّاً بحجج قاتلة . تساءل اذا كان ذلك الالماني المسكين في حاجة حقاً الى البقاء حيّاً.

وتصوّر انه لم يُخلق قطّ . وموجز القول أنه رتب الإغتيال بحيث يضمن الإفلات من العقاب . فالجانب الآخر من النهر كان يحتلّه النمسويون، وفي أسفل النوافد كان مركب ومراكبيّون . كان يسعه قطع رأس ذلك الرجل والقاؤه في الراين والهرب بالحقيبة من النافذة ومنح المراكبيين بعض الذهب والانتقال الى النمسا . وبلغ به الأمر حدّ تقدير درجة المهارة التي تمكّن من إحرازها في استعمال أدواته الجراحية كيما يحزّ عنق ضحيتّه دون ان يُطلق صرخة واحدة . . .

هنا مسح السيد تايّفير العرق عن جبينه وشرب ثانية بعض الماء .

— ونهض بروسبير بتمهّل ودون احداث صوت . وبعد تيقّنه من انه لم يوقظ احد ارتدى ثيابه وانتقل الى الصالة العامّة . ثم ، بتلك الفطنة المشؤمة التي يجدها المرء في ذاته فجأة ، وبشدّة الدقة والعزم التي ابداً لاتعوز المساجين ولا المجرمين في إتمام خططهم حلّ لوالب القضبان الحديدية واخرجها من ثقوبها من غير اية قلقلة ووضعها بجانب الحائط وفتح المغلاقين ضاغطاً بثقله على المفصّلات كي يكتم صريرها .

وأخبرني أنه توقّف هنيهة آنذاك فقد غدا وجيب قلبه من الشدّة ومن العمق ومن الدويّ بحيث أورثه ما يشبه الذعر . خشي أن لايستطيع التصرّف برباطة جأش فقد كانت يداه ترتجفان وشعر بباطن قدميه كأن على جمر مشتعل . لكن تنفيذ غايته كان مرافقاً بفيض من السعادة جعله يرى في مؤاتاة الفرصة تلك قدراً محتوماً . وفتح النافذة وعاد إلى الغرفة وأخذ محفظة عدّته واختار الأداة الأنسب لإتمام جريمته .

قال لي : حين دنوت من السرير أوكلت أمري عفوياً إلى الله .

وعندما رفع ذراعه مستجمعاً كل قوّته سمع في داخله نوعاً من هاتف وخال رؤية نور . فألقى بالأداة على سريره وهرع إلى الغرفة الأخرى واتّخذ مكاناً عند النافذة هناك أحس أفظع كره لذاته . بيد أنه شعر أيضاً بضعف رادعه الأخلاقي وخاف أن يقع مجدّداً تحت السحر الذي ملكه في البداية ، فقفز بسرعة إلى الطريق وتمشى بحذاء الراين رواحاً ومجيئاً أمام النزل وكأنه خفير . كثيراً ما كان يصل اندرناخ في نزهته الهوجاء ، وكثيراً كذلك ما كانت تقوده خطاه إلى المنحدر الذي هبط منه ليبلغ النزل . لكن ، لشدّة ما كان عميقاً سكون الليل ولقوة ما كان معتمداً في إرشاده على كلاب الحراسة كانت تغيب أحياناً عن خاطره النافذة التي تركها مفتوحة . كان غرضه أن يتعب وأن يستدعي النوم . بيد أنه ، بالسير على تلك الصورة تحت سماء صافية ، وبإمتاعه النظر في نجومها الجميلة ، وربما أيضاً بتأثّره بجو الليل النقي وبحفيف الأمواج الشجيّ ، غرق في تأمّل أرجعه تدريجاً إلى أفكار أخلاقية سويّة . وانتهى العقل بأن بدّد كليّة جِنّته الطارئة وانتصرت تعاليم تربيته والمبادىء الدينية ، وعلى الأخص ، كما قال لي ، صور الحياة البسيطة التي عاشها حتّى ذاك في بيت أبيه ، على الهواجس الشرّيرة . ولما عاد ، بعد تأمّل طويل استسلم لهناءته على ضفّة الراين متكئاً على حجر ضخم ، كان في مقدوره ، كما قال لي ، لا أن ينام ، بل أن يسهر بجانب ذهب يساوي ملياراً . وعندما خرجت نزاهته عزيزة قوية من تلك المعركة جثا في شعور انخطاف وسعادة وشكر الله ووجد نفسه مبتهجاً مستريحاً مسروراً كما في يوم تناوله القربان للمرّة الأولى حيث اعتبر نفسه مثيلاً للملائكة لأنه أمضى النهار دون أن يأثم لا في قول

ولا في فعل ولا في فكرة . وآب إلى النزل وارتج النافذة دون خشية من احداث صوت واستلقى فوراً على السرير . وأسلمه عناؤه النفسي والجسمي للسُبات دون مقاومة . وبعد قليل من وضع رأسه على فراشه غرق في ذلك النعاس الابتدائي والخارق الذي يسبق دوماً النوم العميق حينئذ تخدر الحواسّ وتتلاشى الحياة بالتدريج ، وتضمحلّ الخواطر قبل أن تتمّ وتوهم آخر رعشات وَعْيِنا بمثل حلم يقظة .

قال بروسبيه لنفسه : ما أثقل الهواء ، كأني أتنفّس بخاراً رطباً . وعزا ، دون تبين تلك الظاهرة الجويّة إلى الاختلاف المفروض وجوده بين حرارة الغرفة وبين هواء الأرض الفضاء . لكنه لم يلبث أن سمع صوتاً دوريّاً قريب الشبه من صوت قطرات الماء التي تسقط من صنبور . وبدافع من ذعر مباغت عنيف أراد النهوض واستدعاء المضيف وايقاظ التاجر اوفيلهيم غير أنه تذكّر عند ذاك ، لشقوته ، ساعة الحائط الخشبية وخال تعرُّفَ حركة الرقّاص . ورقد على ذلك الإدراك الملتبس المُبهم .

وقال ربّ المنزل وهو يشاهد المتعهّد يتناول الكراز بحركة آلية ، وكان الكراز فارغاً : هل تريد ماءً يا سيّد تايّفير ؟

وتابع السيد هيرمان روايته بعد التوقف القصير الذي سبّبه سؤال المصرفي .

قال : في صباح اليوم التالي أيقظت بروسبير مانيان جلبة عظيمة . تراءى له سماع صرخات حادّة وانتابه ذلك الاختلاج الشديد الذي يتملّكنا حين نكمل لدى الانتباه إحساساً مُغمّاً بدأ في أثناء السُبات . ذلك انه يحدث فينا انفعال فيزيولوجي ، انتفاض كما يسميّه التعبير

العاميّ ، لم يُدرس بما يكفي إلى الآن على الرغم من تضمّنه ظواهر جديرة باهتمام العلم . ذلك الحصر المُمِضّ الناشيء ربمّا عن تلاقٍ مفرط المباغتة لطبيعتينا المفصولتين دائماً تقريباً خلال النوم ، يكون في العادة سريع الزوال . بيد أنه استمرّ عند معاون المساعد المسكين ، بل ازداد فجأة وبعث فيه أفظع قشعريرة لما أبصر بركة دم بين فراشه وسرير فالهنفر ، كان رأس الالماني التعيس ملقىً في الأرض وقد بقي الجسد في السرير . كان الدم كلّه قد تفجّر من العنق . ولما شاهد بروسبير مانيان العينين المفتوحتين الجامدتين ، ولما رأى الدم الذي لطّخ غطاء فراشه وأيضاً يديه ، ولما تعرّف آلته الجراحية على السرير ، أغمي عليه وسقط فوق دماء فالهنفير .

قال لي : إنها كانت منذئذ عقوبة نواياي .

وعندما استرجع وعيه وجد نفسه في الصالة العامة . كان جالساً على كرسي محاطاً بجنود فرنسيين وأمام جمهور متنبّه توّاق للاطلاع . ونظر ببلادةٍ ضابطاً جمهورياً مشغولاً بجمع معلومات بعض شهود وبتحرير محضر رسمي . وتبيّن المضيف وزوجته والمراكبيّين وخادمة النزل . وكانت آلة الجراحة الّتي استعملها القاتل . . . .

هنا سعل السيد تايّفير وأخرج منديله ليتمخّط وجفّف جبينه . وتلك الحركات الطبيعية في الظاهر لم يلاحظها سواي فقد كان كل المدعوين يحدقون السيد هيرمان ويصغون إليه في نوع من نهم . وأسند المتعهد كوعه على المائدة ووضع رأسه على يده اليمنى وحدّج ببصره هيرمان . ومن ثم لم يدع تبدو عليه أية امارة تأثّر أو اهتمام . على أن وجهه ظلّ ساهماً واجماً كما ساعة لعب بالسدّادة والكراز .

. . . كانت آلة الجراحة التي استعملها القاتل على المنضدة مع محفظة الأدوات وجزدان وأوراق بروسبير . وكانت أنظار الحضور تتجه على التوالي نحو أدلّة الاثبات تلك ونحو الشابّ الذي بدا مشرفاً على الموت والذي بدت عيناه المطفأتان لاتبصران شيئاً . كانت الضوضاء المبهمة الآتية من الخارج تنمّ على وجود حشد اجتذبه إلى أمام النزل نبأ الجريمة وأيضاً ولاريب حب معرفة المجرم ، وكان خطو الحرّاس الموضوعين تحت نوافذ الصالة ، وقعقعة بنادقهم يطغيان على همهمة المداولات الشعبية لكن النزل كان مغلقاً والفناء كان خالياً ساكناً . وشعر بروسبير مانيان الذي كان عاجزاً عن مواجهة نظرة الضابط المنظّم المحضر بيد تضغط على يده ورفع عينيه ليرى من هو ظهيره بين ذلك الجمع العدوّ . وتعرّف ، من البزّة ، رئيس جرّاحي الطابور المعسكر في اندرناخ . وكانت نظرة ذلك الرجل من الحدّة والصرامة بحيث جعلت الشاب المسكين يرتعد ويميل برأسه إلى مسند الكرسي . وأنشقه جندي قارورة خلّ فصحا على الفور . بيد ان عينيه الزائغتين بدتا معدومتي الحياة والفهم لدرجة ان قال الجرّاح للضابط بعد جس نبض بروسبير : أيها الكابتين ، من المستحيل استجواب هذا الرجل في هذا الحين . وردّ الكابيتين مقاطعاً الجرّاح مخاطباً عريفاً كان يقف خلف معاون المساعد : إذن ، سوقوه . وقال له الجندي بصوت خافت : أيها النذل الحقير حاول على الأقل أن تمشي بثبات أمام هؤلاء الألمان الأجلاف كي تحفظ كرامة الجمهورية . وأيقظ ذلك الهتف بروسبير مانيان الذي نهض وسار بضع خطوات ، لكن حين فُتح الباب وأحسّ سفح الهواء الخارجي وعاين تدفّق الجمهور تخاذلت ركبتاه وترنّح .

وقال الجنديان اللذان مدّا ذراعهما لسنده : ان طالب الطبّ الزريّ هذا يستحقّ الموت مرتين . هيّا ، تقدّم . — أوه ، الغادر ، الغادر ، إنه هو ، إنه هو ، ها هو ، ها هو . . . خال تلك الكلمات صادرة عن صوت واحد ، الصوت الصاخب للغوغاء التي رافقته وهي تكيل الشتائم والتي كانت تضخم عند كل خطوة . وفي المسيرة من النزل إلى السجن كانت جلبة الشعب والجنود وهمهمات المحاورات المختلفة ، ومنظر السماء وبرودة الهواء ومشهد اندرناخ وحفيف مياه الراين ، كانت تلك الأحاسيس تبلغ نفس معاون المساعد مبهمة مضطربة كامدة شأن كل الانفعالات التي تناوبته منذ أن استيقظ .

قال لي : أحياناً كنت أحسبني لم أعد موجوداً .

وقال السيد هيرمان مستطرداً : كنت آنذاك في السجن . فبالحماسة التي تملؤنا جميعاً في سن العشرين أردت الدفاع عن بلدي وقُدْت سريّة حرة نظّمتها في ضواحي اندرناخ . وقبل بضعة أيام من الواقعة التي أرويها لكم سقطت في الليل وسط فصيلة فرنسية قوامها ثمانمائة رجل . ولم نكن نزيد على مائتين . كان جواسيس قد وشوا بنا . وألقي بي في سجن اندرناخ . كانت النيّة آنذاك إعدامي رمياً بالرصاص لجعلي أمثولة تُرهب المنطقة . وكان الفرنسيون يتحدثون أيضاً عن ثأر لكن جريمة القتل التي أراد الجمهوريون الانتقام لها مني لم تكن ارتُكبت في الإمارة . وقد حصل والدي على تأجيل التنفيذ ثلاثة أيام كيما يستطيع الذهاب لالتماس العفو عني من الجنرال أوجورو الذي أجابه إلى ذلك . وهكذا رأيت بروسبير مانيان لدى دخوله سجن اودرناخ بعث لديّ أعمق الإشفاق . وعلى أنه كان ممتقعاً منهكاً فقد كان في وجهه سيماء

صفاء وبراءة أثّرت في جداً . رأيت المانيا تحيا في شعره الأشقر الطويل وفي عينيه الزرقاوين . وكصورة صادقة لبلدي الحائر القوى بدا لي كضحيّة لا كقاتل . وساعة ان مرّ تحت نافذتي وجّه ، لا أدري إلى أين ، البسمة المريرة الكئيبة لمجنون استرجع بارقة خاطفة من العقل . لم تكن تلك البسمة في الحقّ بسمة مُغتال . ولما قابلت السجّان استخبرته عن حبيسه الجديد فقال : إنه لم ينطق بكلمة منذ أن صار في زنزانته . لقد جلس ووضع رأسه بين يديه وغرق في النوم أو في التفكير في قضيّته . وحسب قول الفرنسيين سيُبّت في أمره صباح غد وسيُعدم بالرصاص بعد أربع وعشرين ساعة . — وبقيت في المساء تحت نافذة السجين خلال الفترة القصيره التي مُنِحتها للقيام بنزهة في باحة السجن . وتحادثنا وقصّ عليّ بسذاجة واقعته مجيباً بسداد كبير على أسئلتي المختلفة . بعد تلك المحادثة الأولى لم أعد أشك في براءته . وطلبت ونلت السماح لي بالبقاء بضع ساعات معه ، واجتمعت إليه بالتالي مرّات عديدة وباح لي الفتى المسكين دون مواربة بكل ما خالج قلبه . كان يعتبر نفسه بريئاً جانياً معاً . ومع تذكّر الإغراء الشنيع الذي قدر على مقاومته ، خشي أن يكون نفّذ في أثناء نومه وفي نوبة روبصة (١) الجريمة التي تخيّلها مستيقظاً .

وقلت له : وماذا عن صاحبك ؟ فصاح بحرارة : اوه : ان فيلهيم لايمكن أن . . . . ولم يُكمل جملته ، حتّى . وعند تلك الكلمة الوديدة المفعمة حماسة ومروءة شددت على يده . وعاد يقول : لاريب في أنه حين انتبه تملّكه الرعب وفقد صوابه فلاذ بالفرار . قلت : دون

(١) الروبصة تعبير علمي مستحدث لتسمية السير والتصرف في اثناء النوم

أن يوقظك ؟ إذن سيكون دفاعك سهلاً . حيث أن حقيبة فالهنفر لاتكون سُرقت . وراح يبكي فجأة وهتف : اوه ، نعم ، أنا بريء . أنا لم أَقتُل إني أتذكر أحلامي . كنت أمارس لعبة الحواجز مع رفقائي في المدرسة . لايعقل أن أكون حززت عنق التاجر بينما كنت أحلم أني أركض . . . ثم ، وعلى الرغم من بوارق الأمل التي أرجعت إليه بعض الهدوء أحياناً ، كان يشعر بندم لاينفكّ يثقله . فقد رفع ذراعه ولاشكّ كي يقطع رأس التاجر . كان يدين نفسه ولا يعتبر ضميره نقيّاً بعد أن ارتكب في ذهنه الجناية . وكان يصرخ : ومع ذلك أنا طيّب . اوه ، يا لأميّ المسكينة . قد تكون تلعب الآن الورق ببهجة مع جاراتها في بَهْوِها المنجّد الصغير . لو تعلم أني رفعت يدي فقط لقتل رجل . . . أوه ، لماتت . وها أنا في السجن متهماً بارتكاب جريمة . إذا كنت لم أقتل ذلك الرجل فسأقتل بالتأكيد أمّي . عند قوله هذا لم يبك ، لكن ، بنازع من ذلك الهياج العابر المحتدم المعهود لدى أهل « بيكارديا » اندفع نحو الحائط ولولا كنت أمسكت به لحطم رأسه عليه . قلت له : انتظر محاكمتك . لن تدان . أنت بريء . وأمّك . . . فصاح بحدّة : أمّي ، انها ستعلم باتهامي قبل كل شيء . ففي المدن الصغيرة تجري الأمور هكذا وستموت المرأة المسكينة كمداً . ثم إني لست بريئاً ، هل تريد معرفة كلّ الحقيقة ؟ أشعر بأني فقدت طهارة ضميري . وبعد تلك الكلمة الفظيعة جلس وشبك ذراعيه على صدره وحنى رأسه وخفض طرفه نحو الأرض وَجِماً . وفي تلك الآونة جاء حامل المفاتيح يسألني العودة إلى حجرتي . غير أني ، وقد عزّ عليّ أن أغادر صاحبي فيما بدا قنوطه في ذروته ، ضممته إليّ بمودّة وقلت له : صبراً ، ربما ينتهي

كل شيء على خير . وإذا كان لصوت رجل صادق أن يُصمت شكوكك فاعلم أني أقدّرك وأحبّك . تقبّل صداقتي ونم على صدري إذا كان لايريحك صدرك .

وفي اليوم التالي جاء عريف واربعة بواريديّة لسوق معاون المساعد حول الساعة التاسعة . ولدى سماعي الجلبة التي احدثها الجنود بادرت الى نافذتي . وعندما اجتاز الشاب الباحة رفع بصره نحوي ولن أنسى أبداً تلك النظرة المفعمة هواجس واحاسيس داخلية وتسليماً ومالا ادري كنهه من أنْس شجيّ . كانت شبه وصيّة صامتة بيّنة يورّث بها صديقه حياته الضائعة صديقه الأخير . لاشك في ان الليلة كانت قاسية جدّاً عليه موحشة جداً له . لكن أيضاً ربما كان الشحوب المرتسم على وجهه ينمّ على جلَدَ مستمد من احترام جديد لذاته . ربّما كان قد تطهّر بندم وظنّ انه غسل ذنْبه بألمه وعاره . كان يمشي بخطو ثابت ، وكان منذ الصباح قد ازال بقع الدم الذي تلطخ به عن غير قصد . قال لي في اليوم السابق : لاشكّ ني ان تكون يداي ابتلّت به وأنا نائم لأن نومي مضطرب جداً . وكان لهجته تطفح بالأسى . وعلمت أنة سيمثُل أمام المجلس الحربي . فبعد يومين كان على الفرقة التقدّم ولم يكن قائد الطابور يشاء مغادرة اندرناخ دون الحكم في الجناية في ذات مكان ارتكابها . . . ظللت في غمّ مُضْنٍ طيلة الوقت الذي استغرقه ذلك المجلس . وأخيراً ، وحول الظهر ، أعيد بروسبير مانيان الى السجن . كنت حينذاك اقوم بنزهتي المعتادة وابصرني وجاء يرتمي بين ذراعيّ قال لي : هالكٌ ، إني هالك لا محالة هنا ، في رأي الكلّ ، سأعتبر قاتلاً . ورفع رأسه في شموخ وأردف : هذا الظلم أرجعني بكلّيتي

الى براءتي . اذا عشت ستكون حياتي دوماً كدرة لكن موتي سيكون بلا عيب . لكن ، هل من آخِرَه ؟ كان كلّ القرن الثامن عشر في في تلك المساءلة الباغتة(١) وغرق في التفكير . فقلت له : أخبرني ، كيف أجبت ؟ ماذا سألوك ؟ ألم تسرد لهم الحادث ببساطة كما رويته لي ونظر الى محدقاً لهنيهة ثم بعد تلك السكتة الرهيبة ردّ عليّ ، وقد تدفق كلامه محتدماً : سألوني أوّلاً : هل خرجت من النزل ليلاً ؟ قلت نعم – من أين ؟ وتضرّج وجهي واجبت : من النافذة – فقد فتحتها إذن ؟ قلت : نعم لقد كنت بالغ الاحتياط فصاحب النزل لم يسمع شيئاً – وسكتّ مذهولاً . أعلن المراكبيّون أنهم رأوني أتمشّى ذاهباً تارة نحو اندرناخ وتارة نحو الغابة . ذكروا أني قمت بنُقلات عدّة . اني دفنت الذهب والماس . هذا الى أنه لم يُعثر على الحقيبة . ثم اني كنت لا أزال في حرب مع تبكيت ضميري . عندما كنت أهِمّ بالكلام كان صوت لا يرحم يهتف بي : إنك اردت ارتكاب الجريمة . كان كل شيء ضدّي حتّى ذاتي . . . سألوني عن رفيقي فبرّأته مطلقاً. حينذاك قالوا لي : لابدّ لنا من ان نتبيّن المجرم بينك وبين رفيقك وبين صاحب النزل وبين زوجته . فهذا الصباح وجُدت كل النوافذ وكلّ الأبواب مغلقة . » . : . وتابع يقول : أمام تلك الملاحظة ألفيت نفسي فاقد الصوت فاقد القوّة فاقد الروح . ولثقتي برفيقي أكثر من ثقتي بذاتي ما كنت استطيع إتهامه . أدركت انه سينظر الينا ، نحن الاثنين

---

(١) دعا مفكرو القرن الثامن عشر ، من الفرنسيين خاصة ، الى الانعتاق من نير رجال الكنيسة الكاثوليكية . ووصفهم المتزمتون بالملحدين . ولصق هذا الوصف بذلك القرن الى الآن .

كمتواطئين في الإغتيال وسأعتبر أنا الأقل شطارة . اردت تفسير الجناية بالروبصة وتبرئة صديقي . إذ ذاك رحت أهذر . إني هالك . قرأت ادانتي في عيون قضاتي . ابتسموا ارتياباً في أقوالي . لقد انتهى كل شيء . انقطع الشكّ . غداً سأعدم . . . وأردف : ماعدت أفكّر في نفسي ، بل في أمي . وتوقّف ونظر الى السماء ولم يذرف دمعاً . كانت عيناه جافتين مختلجتين جداً . — ان فريديريك . . .

وصاح السيد هيرمان بلهجة واثقة : آه ! كان اسم الآخر فريديرك . فريديريك ! نعم هكذا كان اسمه . . .

ونكزتني جارتي بقدمها وأومأت لي مشيرة الى السيّد تايـﭭير . كان المتعهّد السابق قد أرخى يده على عينيه ، لكن من خلال اصابعه تراءينا في نظرته بريقاً كدراً .

وسألتني همساً : هيه ، ماذا لو كان يُدعى فريديريك ؟

وأجبتها بأن رمقتها كما لأقول لها « اصمتي »

واستأنف هيرمان حديثه قائلاً : صاح معاون المساعد : ان فريديريك تخلّى بجبن عني لعلّه خاف . ربّما يكون اختبأ في النزل لأن جوادينا كانا لايزالان هذا الصباح في الباحة — واضاف بعد لحظة صمت : ياله من لغز محيّر الروبصة،الروبصة . . . لم تنتبني الاّ مرّة واحدة في حياتي هذا الى اني كنت في السادسة . وضرب بقدمه الأرض وتابع : أأذهب من هنا جارفاً كل ما في الدنيا من صداقة ؟ أأموت مرّتين إذن بارتيابي في أخوّة بدأت في سنّ الخامسة وتواصلت في المعهد والكلّيات ؟ اين فريديرك — واردف باكياً : أتُرانا نتمسك بعاطفة أكثر من تمسّكنا بالحياة ؟ والتفت إليّ قائلاً : لندخل أفضّل ان أكون في زنزانتي .

او د ان لا يراني أحد أبكي . سأمشي بشجاعة الى الموت لكني لا أعرف إبداء بطولة في غير محلّها . و أُقرّ بأني آسف على حياتي الفتية الحلوة . طيلة هذه الليلة لم أنم . استرجعت مشاهد طفولتي ورأيت نفسي أعدو في تلك المروج التي ربّما كان تذكارها سبب هلاكي . — وقال مستطرداً : كان أمامي مستقبل . . اثنا عشر رجلاً وملازم سيصرخ : سلاحَك خذْ ، سدّد ، أطلقْ . — وقرع طبول . . . والعار ، هذا مستقبلي الآن . اوه ، هناك ربّ وإلاّ كان كلّ هذا ترّهات . عند ذاك لفّني بذراعيه وضمنّي اليه بقوّة قائلاً : آه ، أنت آخر إنسان كنت استطيع ان اكشف امامه سريرتي . ستكون حرّاً ، أنت . سترى أمّك . لا أدري هل أنت غني أو فقير لكن لاأهمّية لذلك.أنت العالم بأسره بالنسبة اليّ . ان يظلّوا يقاتلون الى الأبد ، هؤلاء . إذن ، حين يتسالمون إذهب الى « بوفيه » ، واذا بقيت أمّي حيّة بعد نبأ موتي المشؤوم ستجدها . قل لها كلمتي العزاء هاتين : « كان بريئاً » . ستصدّقك . سأكتب إليها ، لكن ستحمل اليها أنت نظرتي الأخيرة . ستقول لها انك آخر إنسان عانقته . آه ، كم ستحبّك ، تلك المرأة المسكينة ، أنت الذي كنت لي آخر صديق . — وقال بعد فترة صمت لبث خلالها كما رازحاً تحت ثقل ذكرياته : هنا ، القوّاد والجنود غريبون علي وهم يكرهونني جميعاً . لولاك ستكون براءتي سرّاً بين السماء وبيني .

وأقسمت له على ان أنفّذ بأمانة رغباته الأخيرة . وأثرت في نفسه كلماتي وعاطفتي . وبعد قليل عاد الجنود فأخذوه وساقوه أمام المجلس الحربي .. كان قد أدين . لا أعرف الإجراءات المفروض ان تتبع أو أو ان ترافق ذلك الحكم الاوّل ، لا ادري اذا كان الجرّاح الشابّ

دافع عن حياته ضمن كلّ الأصول . لكن كان يتوقّع ان يُقاد الى العقاب صباح اليوم التالي وأمضى الليل في الكتابة الى أمّه .

قال لي مبتسماً حين ذهبت لألقاه في اليوم التالي : سيكون كلانا حرّاً . علمت ان الجنرال وقّع أمر العفو عنك — ولزمت الصمت ورنوت اليه كيما أطبع جيّداً قسماته ني ذاكرتي . عندئذ ارتسم على وجهه تعبير اشمئزاز وقال لي : كنت للأسف جباناً ظللت طيلة الليل التمس العفو عني من هذه الجدران . وأشار الى جدران زنزانته نعم ، نعم ، صرخت من اليأس ، ثرت ، عانيت أفظع احتضار نفسّي . — كنت وحدي . الآن أنا افكّر في ما سيقوله الآخرون . . . ان الشجاعة لباس يُرتدى . ينبغي ان أذهب بلياقة الى الموت . . . لذلك .

العدالتان

وصاحت الصبية التي طلبت تلك القصة مقاطعة فجأة النورمبورغي : أوه ، لا تكمُل . اريد أن أبقى في شكّ وأخال أنه سلم . إذا علمت اليوم أنه اعدم لن أتمكن من النوم الليلة ، غداً ستروي لي البقيّة .

وغادرنا المائدة . ومدّ السيد هيرمان ذراعه لجارتي فاعتمدت عليها وسألته : إنه أعدِم ، أليس كذلك ؟

قال : نعم وقد شهدت اعدامه

قالت ، كيف ياسيدي ؟ هل قدرت . . . ؟

قال : لقد طلب ذلك ياسيدتي . إنه احساس بالغ الفظاعه ان نشيّع

الى القبر إنساناً حيّاً ، انساناً نحبّه ، انساناً بريئاً . لم ينقطع ذلك الشاب المسكين عن النظر اليّ ، بدا كأنما لم يعد يحيا إلاّ فيّ . كان يريد ؛ كما قال لي ، ان انقل الى أمّه نَفَسه الأخير .

— وبعد ، هل قابلتها ؟

— إثْر صلح أميان(١) قدمت الى فرنسا لأبلغ الأمّ تلك الكلمة الحلوة : كان بريئاً . قمت بذلك الحجّ كفرض ديني . لكن السيدة مانيان كانت قد ماتت كمداً . ولم أخْلُ من تأثّر عميق وأنا أحرق الرسالة التي كنت احملها . ستسخرين ربّما من انفعالي الجرماني لكني رأيت مأساة فائقة الإحزان في السرّية الأبدية التي ستطوي تعابير الوداع تلك المُلقاة بين قبرين مجهولة من كلّ الخليقة كصرخة يطلقها وسط الصحراء المسافر الذي يفاجؤه أسد .

وسألته أنا مقاطعاً : وماذا لو وضُعت وجهاً لوجه أمام أحد الرجال الذين في هذا البهو وقيل لك : هاهو القاتل ؟ الا تكون تلك مأساة أخرى ؟ وماذا كنت ستفعل ؟

وتوجّه السيد هيرمان لأخذ قبعته وخرج .

وقالت لي جارتي : إنك تتصرف كفتى غرّ وفي طيش كبير . أنظر الى تايّفير . هاهو يجلس على الاريكة هناك عند ركن المدفأة والآنسة فانّي تقدّم اليه فنجان قهوة . إنه يبتسم . هل يستطيع قاتل ، من شأن رواية هذه الواقعة ان تقضي عليه فزعاً ، إظهار هذا القدر من السكينة ؟ أليست له حقّاً هيئة الأبّوة التوراتية ؟

---

(١) عام ١٨٠٢

فصحت : نعم ، لكن هيّا اسأليه اذا خاض الحرب في ألمانيا .

قالت : ولِم لا ؟

وبتلك الجرأة التي نادراً ما تفتقدها النساء عندما يروق لهن فعل أو يغلب الفضول على ذهنهن تقدمت جارتي نحو المتعهد قائلة :

– هل ذهبت الى ألمانيا ؟

وكاد تايّفير يسقط من يده صحن الفنجان وأجاب :

– أنا ياسيّدتي ؟ كلاّ ، أبداً .

وردّ عليه الصيرفي مقاطعاً : ماذا تقول ياتايّفير ؟ ألم تكن في فرع التموين في حملة فاغرام » ؟

وأجاب السيّد تايّفير : آه ، نعم ، تلك المرّة ذهبت اليها .

وقالت لي جارتي لدى عودتها قربي : إنك مخطىء . فهو رجل طيّب .

وصحت : حسناً ، قبل انتهاء الأمسية سأطرد القاتل خارج الحمْأة التي يختبىء فيها .

تحدث في كل يوم تحت أنظارنا ظاهرة روحية مدهشة العمق ومع ذلك أبسط من أن تُلاحظ . إذا التقى في بهو رجلان لأحدهما حق احتقار أو بغض الآخر إمّا لمعرفته واقعة حميمة وخفيّة تلوّثه ، أو لمصلحة مكتومة أو حتّى لانتقام مُبيّت ، فان هذين الرجلين يحزران بعضاً ويشعران بالهوّة التي تفصل أو ستفصل بينهما ، انهما يتراقبان على غفلة من بعض ويهتّمان ببعض وتنّم نظراتهما وحركاتهما على انبثاث غامض لتفكيرهما . يكون بينهما مغناطيس ولا أدري أيّاً أكثر انجذاباً بين

الانتقام والإجرام ، بين الكره والإهانة . وشأن الكاهن الذي لم يكن يستطيع تقديس القربان في حضور الشيطان كلاهما متضايق محترس : أحدهما متأدّب والآخر متقطّب ولا ادري أيّهما كذلك . هذا يتورّد وذاك يترعدد . وغالباً ما يكون المنتقم في مثل جبانة الضحيّة . فقليل من الناس لديهم الشجاعة على إحداث شرّ وإن ضروريّاً ، وكثير يسكتون أو يسامحون بغضاً باللغط أو خوفاً من خاتمة مُفجعة . كان هذا الاندماج لنفسينا وعواطفنا يقيم صراعاً خفيّاً بين المتعهّد وبيني . فمنذ مخاطبتي الأولى في اثناء قصّة السيد هيرمان صار يتجنّب نظراتي . وربّما صار أيضاً يتجنّب نظرات جميع المدعوين . راح يحادث الغرّة « فانّي » ، ابنة الصيرفي شاعراً ولا ريب ، ككل المجمرين بالحاجة الى التقرّب من البراءة آملاً أن يجد بجانبها الراحة . بيد اني ، مع بعدي عنه ، كنت استمع اليه وكان لحظي الحادّ يجتذب لحظه . وحين كان يحسب التمكن من مراقبتي بحرّية كانت نظرتان تلتقيان وكانت أجفانه تنطبق فوراً . وإذ تعب تايّفير من ذلك العذاب سارع الى وقفه بأن توجّه الى لعب الورق . ورحت أراهن على خصمه لكن مع الرغبة في أن أخسر دراهمي واستجيبت تلك الأمنية . وأخذت مكان اللاعب المنسحب وأصبحت وجهاً لوجه مع القاتل . . . .

قلت له وهو يوزّع الورق : سيّدي ، هل لك ان تتلطف « وتمحو العلامات» ؟(١) .

ونقل بسرعة فلوس رهانه من اليسار الى اليمين . وقدمتْ جارتي الى جانبي فطرفت اليها طرفة ذات مدلول وسألت مخاطباً المتعهد :

---

(١) يقصد ان تايفير « أعلم » على ورق اللعب بغية الغش و « هذا طبعاً تحرش به صريح

– هل أنت السيد فريديريك تايّفير الذي عرفتُ جيّداً أسرته في بوفيه ؟

فأجاب : نعم ياسيدي .

وأفلت ورقاته من يده وامتقع ووضع رأسه بين كفّيه ودعا أحد المراهنين الى متابعة اللعب بدلاً منه ونهض .

صاح : الجوّ مفرط الحرارة هنا ، أخشى . . .

ولم يكمل ، وتشنّج وجهه فجأة معبّراً عن آلام فظيعة وخرج بسرعة . ورافق صاحب البيت تايّفير وقد بدا مهتّماً جدّاً بحالته . ونظرنا جارتي وأنا الى بعض لكني لمست غشاوة من أسى مرير في وجهها

سألتني وهي تقودني الى فرجة نافذة عندما غادرت مائدة اللعب بعد ان خسرت : هل في تصرّفك شيء من الرحمة ؟ هل تريد قبول القدرة على قراءة ما في الأفئدة ؟ لماذا لا تدع العمل للعدالة الانسانية وللعدالة الإلهية ؟ اذا افلتنا من واحدة لن نخلص أبداً من الأخرى . هل صلاحيات رئيس محكمة جنايات جديرة حقاً ان تُحسَد ؟ إنك قمت تقريباً بمهمّة الجلاّد .

– أبعْدَ ان شاركتني حبّ المعرفة وحثثتني عليه تؤنّبينني ؟

– قالت : إنك حملتني على التفكير .

– إذن السلام على الأوغاد والسحْق للتعساء ، ولنؤلّه الذهب

وأضفت ضاحكاً : لكن لندَعْ هذا . أنظري ، رجاءً ، الى الشابة الداخلة الآن الصالة

– ماذا عنها ؟

– أبصرتها قبل ثلاثة أيام في حفله سهر بنابولي وأُغرمت بها جدّاً

هل لك ، لطفاً ان تُعلميني اسمها . لم يستطع أحد . . .

– إنها الآنسة فيكتورين تايّفير .

وأصبت بذهول . وتابعت جارتي تقول ، وأنا أكاد لا أسمع صوتها : ان زوجة أبيها اخرجتها من قريبٍ من الدير الذي أكملت فيه بشكل متأخّر تعليمها ظلّ والدها لمدة طويلة يرفض الأعتراف بها . إنها المرّة الأولى التي تجيء فيها هنا . أنها بالغة الجمال بالغة الغنى .

وروفقت تلك الكلمات ببسمة تهكّم . وفي تلك الآونة سمعنا صرخات قوّية لكن مكتومة . بدت صادرة من شقّة مجاورة وترجّعت صعيفةً في الحديقة .

وصحت : اليس هذا صوت السيّد تايفيّر ؟

وأعرنا الصوت كل انتباهنا وبلغت أنّات مريعة آذاننا وبادرت زوجة المصرفي نحونا وأغلقت النافذة ، وقالت لنا :

– لنِتحاشى الأمور المزعجة . اذا سمعت الآنسة تايّفير أباها فقد تصاب بنوبة عصبية .

وعاد المصرفي الى البهو وقصد فيكتورين وهمس لها بكلمة . وفوراً أطلقت الفتاة صرخة واسرعت نحو الباب واختفت . وكان لذلك الحادث وقع شديد وتوقّف لعب الورق وراح كل يستخبر جاره وانقلبت الوشوشة جلبة وتشكلّت جموع صغيرة .

وسألتُ : أيكون السيد تايّفير قد . . .

وصاحت جارتي الساخرة : انتحر ؟ . . لا أظنّك ستحزن لفقده

– لكن ماذا حدث له ؟

وردت ربّة البيت : ان الرجل المسكين يشكو من علّة لم استطع حفظ اسمها مع ان السيّد « بروسّون » ذكره مراراً لي . وها قد عاوده الآن العارض .

وسأل فجأة قاضي تحقيق : وما نوع هذه العلّة ؟

قالت : أوه ، إنه داء رهيب يا سيدي . والأطباء لايعرفون له دواءً . آلامه ، على ما يظهر ، مبرِّحة . ذات يوم وقد أصيب تايّفير المسكين هذا بنوبة خلال إقامته عندي في مزرعتي اضطررت إلى الذهاب إلى بيت إحدى جاراتي كيلا أسمعه . كان يطلق صرخات فظيعة ، يريد قتل نفسه ، واضطرّت ابنته آنذاك إلى جعله يقيّد إلى سريره ويُلبَس قميص المجانين . ويزعم هذا الرجل التعس أن في رأسه حيوانات تنخر دماغه : حزاً ونشراً وتمزيقاً مُمضّاً داخل كل عصب . كان رأسه يؤلمه لدرجة أنه لم يكن يشعر بالكيّ الذي كان يُجرى له قديماً لتحويل الوجع . لكن السيد بروسّون ، الذي اتّخذه طبيباً ، منع ذلك زاعماً أن الآفة عصبية ، إنها التهاب أعصاب تستدعي وضع علقات على الرقبة وأفيوناً على الرأس . وفعلاً أصبحت النوبات أندر حدوثاً ولم تعد تحصل إلاّ سنوياً حول نهاية الخريف . وحين يُبَلّ تايّفير لايني يؤكّد أنه كان يفضّل عذاب الدولاب (١) على معاناة تلك الآلام .

وقال صرّاف ، هو ظريف ذلك الجمع : فهو اذن يقاسي شديداً على ما يبدو .

---

(١) عذاب الدولاب : تعذيب ظل جارياً في اوربا حتى اواخر القرن الثامن عشر يعمد فيه الى تحطيم أعضاء المجرم ثم شبحه فوق دولاب وتركه هكذا الى ان يموت

قالت : أوه . في العام الماضي كاد يقضي . ذهب بمفرده إلى أرضه الزراعية في شأن مستعجل ، ولعدم وجود من يسعفه ربّما ، ظلّ اثنتين وعشرين ساعة طريحاً بلا حراك وكأنْ ميتاً . ولم ينقذه سوى حمّام حارّ جداً .

وسأل الصرّاف : إنه إذن نوع من كزاز ؟

قالت : لاأعلم . منذ قرابة ثلاثين سنة وهو يكابد هذه العلة التي انتابته عندما كان مع الجيش . قال إن شظيّة خشبية نفذت في رأسه حين سقط في مركب . بيد أن بروسّون يأمل أن يشفيه . يشاع ان الانكليز اكتشفوا وسيلة لمعالجة هذه العلّة دون خطر بواسطة الحمض البروسيّ .

وفي تلك اللحظة دوّت في المنزل صرخة أشدّ حدّة من سابقاتها ملأت نفوسنا بالهول .

وتابعت زوجة الصيرفي تقول : هذا ما كنت أسمعه دائماً فيجعلني أطفر من مقعدي ويهيج أعصابي . لكن العجيب أن تايّفير المسكين هذا ، مع مقاساته آلاماً لاتطاق ، غير معرّض أبداً للموت . إنه يأكل ويشرب كسائر الناس في فترات الراحة التي يسمح له بها هذا العذاب المُريع (ما أغرب الطبيعة !) قال له طبيب الماني إنه نقرس في الدماغ . وهذا يتّفق مع رأي بروسّون .

وغادرت الجمع الذي تشكّل حول ربّة البيت وخرجت مع الآنسة تايّفير التي جاء خادم ليصحبها ،

وصاحت باكية : ربّاه ، ربّاه . ماذا فعل أبي للسماء فاستحقّ كلّ هذا العذاب ؟ . . . هذا الإنسان البالغ الطيبة . . .

وهبطت السلّم معها وفيما كنت أساعدها على صعود العربة أبصرت فيها والدها متقوّس الظهر . وحاولت الآنسة تايّفير تكتم أنّات أبيها بتغطية فمه بمنديل . ولسوء الحظّ رآني فبدا وجهه وكأنما زاد اكفهراراً وشقّت الجوّ صرخة تشنّجي وحدجني بنظرة فظيعة . وانطلقت العربة .

كان لذلك العشاء ولتلك السهرة تأثير قاسٍ على حياتي وعلى عواطفي . فقدأحببت الآنسة تايّفير ، ربّما لذات سبب ان الكرامة والشهامة كانتا تحظران عليّ مصاهرة قاتل مهما كان صالحاً كوالد وكزوج . كان قدر عجيب يقودني إلى تلّمس من يقدّمني إلى أصحاب البيوت التي أعرف أنه يمكن أن أصادف فيها فيكتورين . وكثيراً ما كنت أعاهد نفسي على أن لاأعاود لقياها فأجدني في المساء قربها . كانت بهجاتي عظيمة . كان لحبّي المشروع المفعم بندامات خيالية ، طابع شغف إجراميّ . كنت أحتقر ذاتي ان حيّيت تايّفير إذا حدث ان كان مع ابنته لكن كنت أحيّيه . وفوق ذلك ، ولشقوتي ، ليست فيكتورين فتاة جميلة وحسب ، بل هي أيضاً مثقّفة مليئة بالمواهب ، بالألطاف ، خالية من أيّ تحذلق ، من أي تكبّر . إنها تتحدث برصانة ولطبعها حلاوات مطربة لايقدر على مقاومتها أحد . وهي تحبني أو تدعني أعتقد ذلك على الأقل . ولها ابتسامة لايفترّ بها ثغرها الآلي ، ولي يزداد صوتها نعومة . اوه . إنها تحبّني لكنها تعبد أباها ، لكنها تمجّد لي طيبته ودماثته وسجاياه الرائعة . وهذه الإطراءات كلها طعنات خنجر في قلبي . ذات يوم كدت أصبح شريكاً في الجريمة التي قام عليها ثراء أسرة تايّفير : أردت خطبة فيكتورين . عندئذ هربت . سافرت . ذهبت إلى ألمانيا ، إلى أندرناخ . غير أني رجعت . وجدت فيكتورين شاحبة . لقد هزلت

لو أني لقيتها معافاة مبتهجة لكنت خلصت . بيد أن ولعي تأجج بحدّة فائقة وإذ خشيت أن تنقلب وساوسي إلى هوس قرّرت دعوة مجلس أعلى من الضمائر الصافية لإلقاء بعض النور على مسألة الأخلاق السامية والفلسفة هذه . فقد زادت القضيّة تعقّداً منذ عودتي . ويوم أمس الأوّل جمعت من أصدقائي أولئك الذين أومن بأنهم الأكثر صدقاً ولباقة وكرامة . دعوت انكليزيين : سكرتير سفارة وطهري (١) ، ووزيراً سابقاً في كامل النضوج السياسي ، وشبّاناً لايزالون على نعمة سلامة القلب ، وكاهناً وهو هرِم ، ثم الوصيّ السابق عليّ ، وهو رجل بسيط قدّم لي عن وصايته أدقّ حساب سجّله قصر العدل ، ومحامياً ومُوثق عقود ، وقاضياً ، وجملة القول : كل الآراء الاجتماعية ، كل الفضائل العملية . بدأنا بأن تعشّينا جيداً وتكلّمنا جيداً وتصايحنا جيداً ، ثم عند تناول الحلوى رويت قصّتي ببساطة والتمست نصحاً مفيداً ، كاتماً اسم مخطوبتي .

قلت لهم في الختام : أرشدوني يا أصدقائي . ناقِشوا الموضوع طويلاً كما لو أنه مشروع قانون . سيؤتى إليكم بالصندوق وبِكُرات البلياردو وستصوّتون مع أو ضدّ زواجي في السريّة التامّة المتطلبّة في اقتراع .

وساد صمت عميق فجأة . وأعلن الموثق عدم صلاحيته للحكم قائلاً : هذا يستوجب تعاقداً .

وكانت الخمرة قد أسكتت الوصيّ السابق عليّ ، وصار ضرورياً وضعه تحت الوصاية كيلا يتعرّض لخطر في عودته إلى منزله .

---

(١) المطهريون : فرقة انجيلية شديدة التزمت والتمسك بأهداب الفضيلة

وصرخت : لقد فهمت . ان عدم إعطائكم رأياً بيان صريح على ما يلزمني أن أفعل .

وسرت رعشة في الجمع . وصاح ملاّك كان تبرّع بمبلغ لإعالة أبناء الجنرال « فوا » (١) ولبناء ضريحه : « كمثل الفضيلة للجريمة درجاتها » (٢) .

وقال لي الوزير السابق هامساً وهو ينكز كوعي : يا له من ثرثار .

وسأل دوق تألفت ثروته من أملاك صودرت من أُسر بروتستانتية عاصية لدى نقض « مرسوم نانتْ » (٣) : أين المشكلة ؟

ونهض المحامي . صاح صوت الشرع ذاك : حسب القانون لاتعتبر « الحالة » المعروضة علينا مشكلة . ان السيّد الدوق على حقّ . ألم يحصل تقادم ؟ ماذا سيكون من أمرنا جميعاً إذا وجب البحث عن مصدر الثروات ؟ إذا كنت مُصرّاً على نقل الدعوى أمام محكمة فتوجّه بها إلى « محكمة التوبة » .

وسكت القانون المتقمّص وجلس وشرب كأساً من نبيذ «شامبانيا» .

ونهض الرجل المكلّف بتفسير الإنجيل ، أي الكاهن الصالح ، وقال بحزم : إن الله خلقنا ضعفاء . إذا كنت تحبّ وريثة الجريمة تزوّجها لكن إكتَفِ بمال زوجتك (٤) وأعط الفقراء مال الأب .

---

(١) الجنرال فوا (١٧٧٥ – ١٨٢٥) كان من اقطاب نواب المعارضة كانت جنازته مناسبة لمظاهرة معادية للحكم القائم .

(٢) بيت شعر مشهور في الفرنسية .

(٣) (الشرح في ذيل الصفحة التالية) .

(٤) في عام ١٥٩٨ اصدر الملك هنري الرابع مرسوماً ينظم ممارسة البرونستانت مذهبهم . وفي عام ١٦٨٥ اصدر الملك لويس الرابع عشر مرسوماً ينقض ذلك المرسوم . عمد الى اضطهاد البروتستانت مما اضطر غالبيتهم الى الهجرة الى اميركا .

أي الموروث عن أمها .

وصاح أحد أولئك المماحكين عديمي الرحمة الذين كثيراً ما يُصادفون في المجتمع : لكن ربّما لم يستطع الأب التزوّج من فتاة غنية إلاّ لأنه أثرى . ألا تكون إذن كلّ هناءاته ثمرة الجريمة ؟

وهتف الوصيّ السابق عليّ ظاناً أنه يُنير الجماعة بخاطرته المخمورة : ان المناقشة هي في ذاتها حكم . فهناك شؤون لايناقِش فيها المرء .

فقال سكرتير السفارة : نعم . . وصاح الكاهن : نعم .

وما كان ذانك الرجلان متفاهمين قبلاً

ونهض عقائديّ لم ينقصه ليُنتخب إلاّ مائة وخمسين صوتاً من أصل مائة وخمسة وخمسين .

وقال : أيها السادة ان هذا العارض الاستثنائي في الطبيعة الذهنية هو من العوارض الأحدّ شذوذاً على الوضع القياسي الذي يخضع له المجتمع . لذا يجب أن يكون القرار المطلوب اتّخاذه عملاً فورياً من ضميرنا ، تصوّراً مفاجئاً ، حكماً منوِّراً ، لمحة عابرة من إدراكنا الداخلي قريبة الشبه إلى البروق المكوّنة عاطفة الذوق . فلنقترع .

وصاح ضيوفي : فلنقترع .

وأوعزت باعطاء كلٍّ كرتين واحدة بيضاء والأخرى حمراء . والأبيض ، رمز العفة سيعني حظر الزواج ، والكرة الحمراء تأييده . كان عدد أصدقائي سبعة عشر وعدد تسعة يشكل الغالبية المطلقة . وتوجّه كلّ لوضع كرته في سلّة القصب الضيّقة العنق وتملّكنا فضول شديد لأن ذلك التصويت الأخلاقي المهذّب كان ذا طابع طريف . ولدى فرز الأصوات وجدت تسع كرات بيضاء . ولم تدهشني تلك النتيجة

لكن عزّ لي أن أحصي الشباب من سنّي الذين جعلتهم بين قضاتي . كان المفتون أولئك تسعة وقد خطر لهم جميعاً ذات الخاطر .

وقلت في نفسي : اوه ، اوه ، هناك اجماع سرّي على تأييد الزواج واجماع ظاهريّ على حظره عليّ . كيف الخروج من الورطة ؟

وسأل دون تروٍّ أحد رفقائي في المدرسة وكان أقلّ تكتّماً من الآخرين : أين يقيم الحَمو ؟

فصحت : لم يعد من حمٍ . قبلاً كان ضمير يتحدّث بوضوحٍ كافٍ لجعل حكمكم غير ضروري . واذا كان صوته قد ضعف اليوم فاليكم أسباب جُبني . فقد تلقيت قبل شهرين هذه الرسالة المبينة . وأريتهم الدعوة التالية التي أخرجتها من محفظتي :

« أنتم مدعوون إلى حضور جنازة وقدّاس ودفن السيد جان — فريديريك تايّفير ، من « مؤسسة تايّفير وشركاه ، متعهّد المؤن — اللحوم سابقاً ، الحائز في حياته وسام جوقة الشرف من رتبة ضابط ووسام المهماز الذهبي ، كابيتين سريّة الرماة الأولى في الفوج الثاني « من حرس باريس الوطني ، المتوفّى يوم الأول من أيار في منزله في شارع جوبير ، والتي ستجري الخ . . .

« من قِبَل . . . . الخ . . . »

وعدت أقول : ما العمل الآن ؟ سأطرح عليكم السؤال بشكل واسع جدّاً : هناك بكل تأكيد بركة دم في أراضي الآنسة تايّفير وتركة والدها مال حرام . لكن بروسبير مانيان لم يخلّف ورثاء ، لكن استحال عليّ العثور على أسرة صانع الدبابيس المُغتال في اندرناخ . إلى من تُعاد الثروة ؟ هل تجب إعادة كل الثروة ؟ هل لي الحق في أن أفضح

سرّاً عرفته عرضاً ، في أن أضيف رأساً مقطوعاً إلى بائنة فتاة بريئة ، في أن أجعلها تحلم أحلاماً مزعجة ، في أن أحرمها وهماً جميلاً ، في أن أقتل لها أباها مرة أخرى بقولي لها : جميع دراهمك مدنّسة ؟ لقد استعرت « قاموس أزمات الضمير » من رجل كهنوت شيخ فلم أجد فيه حلاً لاحتياري . هل أنشيء مؤسسة خيرية باسم بروسبير مانيان ، أو فالهنفر ، أو تايّفير ؟ إننا في قلب القرن التاسع عشر . أأبني دار عجزة أو أخصص جائزة للفضيلة ؟ ستُمنح جائزة الفضيلة لمحتالين . أما معظم مشافينا فقد غدت على ما يبدو لي حماة الرذيلة . ثم هل هذه التوظيفات المفيدة بقدر أو بآخر للغرور ستعتبر تعويضات ؟ وهل أنا ملزم بها . وبعد فأنا أحبّ ، وأحبّ بشغف . وحبّي هو حياتي . فاذا اقترحت دون مبرّر على فتاة معتادة البذخ والأناقة وحياةً مفعمة بالمتع الفنيّة ، على فتاة تحبّ الاستماع باسترخاء في مسرح « بوفّون » ملى موسيقى روسّيني .

أقول : إذا اقترحت عليها حرمان نفسها من مليون ونصف فرنك لصالح هرِمين خرِفين أو جربين وهميين ، ستدير لي ظهرها ضاحكة أو ستعدّني خالصتها ثقيل المزاح . وإذا ، في غمرة ولَه أطريت لها حلاوة عيشة بسيطة ولبيتي الصغير على ضفة « اللوار » ، إذا طلبت إليها التضحية بعيشنها الباريسية باسم حبّنا ، سيكون هذا أولاً كذبة نبيلة ، ثم قد أكون خضْتُ تجربة مريرة تفقدني قلب تلك الفتاة المغرمة بالحفلات الراقصة المولعة بالزينة ، وبي حالياً . سيختطفها مني ضابط مشيق أنيق يكون له شارب جميل العقفة ويعزف على البيانو ويمتدح

لها اللورد بايرون ويُحسِن ركوب الخيل . ماذا أفعل أيّها السادة ، تفضلوا علي بنصيحة . . .

وهزّ ذلك الطهري الذي ذكرته لكم والذي لم ينبس حتى إذٍ بكلمة ، هز كتفه وهو يقول لي :

أيها الأحمق ، لماذا سألته هل هو من « بوفيه » ؟

باريس

أيار ١٨٣١

★ ★ ★

الفهرس

صدر عن وزارة الثقافة

من المجموعة الكاملة لروايات بلزاك

مترجماً إلى اللغة العربية ما يلي :

١ ـ الخليلة المزعومة .

٢ ـ رواية الكولونيل شابير ورواية هوثورين .

٣ ـ مجد وشقاء .

٤ ـ الثار .

٥ ـ الأب غوريو .

٦ ـ جنة الرمان ـ المرأة المهجورة ـ فاجعة على الساحل .

٧ ـ الولد الملعون .

٨ ـ المارنا ـ المسوق ـ السياف .

٩ ـ وداعاً ـ النزل الاحمر .

١٠ ـ الممثلون الغافلون .

النص : ترجمة صلاح الدين برمدا

والمقدمات : ترجمة المهندس ميشيل خوري

الطبع وفرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٣

سعر النسخة داخل القطر
٥٠ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل
١٠٠ ل.س